هــذا المــحــور

■ ١ ■

فلسطين ، اولا .

فلسطين ، ماقبل الاول .

ما من طريق عربي لايمر بفلسطين ، ما مــن دم عربـي لاينصب في هذا الجرح . يكبر الجرح ، فيكبر نزيف الدم . الأرض ، هــي الأخرى ، تنزف . عضواً عضــواً تسّاقط الأرض . ثم تصير فلسطين هي الوطن ، من الماء الى الماء . والنزيف يصير ملء الجسد العربي . لايقل احد : « هــذا لايعنيني ! » . تعنينا ، جميعاً ، فلسطين . ذلك انها مسألة مصير . ذلك انها قضية ان نكون أو لا نكون . ليست التوسعية وحدها سمة المشروع الصهيوني . فالتوسعية لاتكون اندياحاً في المكان فقط . للقبض على المكان لابد من القبض على الزمن ايضاً ، أي : على العنصر الذي يصنع المكان والزمان معاً : الانسان . من هنا يطمح المشروع الصهيوني الى الغاء الانسان على الارض التي تمتد توسعيته فيها . هي ، اذن ، مسألة صراع على الوجود . وفي حالة الصراع على الوجود تسقط المشاريع التسووية كلها .

تسوية ! كيف ؟!

اي مشروعٍ للتسوية انما يصب ، في النهاية ، في المشروع الصهيوني . تسوية ؟ بين من ومن ؟ بين القاتل والقتيل !!

■ ٢ ■

ما مصير فلسطين ؟ التصفية ، ام التحرير ؟

ينسحب السؤال ، بالتالي ، على المصير العربي كله . فالمعادلة ماعادت كما في الامس : فلسطين جزء من القضية العربية . انقلبت المعادلة تماما : القضية العربية جزء من قضية فلسطين . لاحلّ لاية مسالة عربية خارج حل المسالة الفلسطينية . بالمقابل ، لاحل للمسالة الفلسطينية خارج الحل العربي . التجزئة قائمة ، مادام المشروع الصهيوني قائما . الخوف ، كذلك ، قائم . في الخوف ، كما في التجزئة، لايمكن النمو .. لايمكن التقدم بالتالي .

ان الحلم العربي يحاصر في ظل هذا المشروع ، يحاصر الحاضر والمستقبل . ولا يبقى امام العربي ، مالم يقاتل ، سوى مزيد من العراء ، ومزيد من الخيام .

■ ٣ ■

التحرير .. او التصفية . ما من خيار آخر .

بعض العرب ، او كثير منهم ، يتغافل عن هذه الحقيقة . على الفكر العربي ان لايغفل .

ففي هذا الخندق الامامي الواحد ينبغي ان تلتقي عناصر التقدم العربي كلها : فصائل واحزابا وايديولوجيات . يحدث اختلاف في الآراء ! ربما ! ما دمنا جميعا في الطريق الى هذا الخندق ، لاباس ان يحدث حوار الآراء .

هذا المحور الذي تقدمه « المعرفة » تعبير عن هذا الحوار .

خمس دراسات اختارتها « المعرفة » من « ندوة آذار الثانية » التي عقدتها في بيروت مجلة « فكر » . خمس دراسات من « فلسطين بين التصفية والتحرير » .

رئيس التحرير

من الكفاح المسلح
إلى حرب التحرير

د. مروان فارس

« ان معنودية الدولة مهدت السبيل لتوليد التحد القومي ولكن القومية اوجدت صفة جديدة وحقوقا جديدة لم تكن للمعدودية القديمة . انها شيء لا سلطة للدولة عليه فهي لا تجنح من قبل الدولة لمقاطعات بعيدة وشعوب عديدة كما كانت تمنح المعدودية في رومة لعهد القياصرة ، بل هي حق من حقوق كل فرد من افراد الامة بالولادة .

والدولة القومية تتميز بانها لم تعد دولة تجبل الاقدام جبلا في مساحة الارض التي تبسط ظلها عليها ، لانها اصبحت تصطدم بارادة متحدها هي قوميتها ، وبارادة القوميات الاخرى . فاذا اتسع نطاق الدولة حتى جاوز نطاق الامة اصبحت الدولة امبراطورية او استعمارية كما هي الدول الاولى الان » .

انه جوهر الصراع الذي يدور منذ بدايات هذا القرن بين شعبنا والهجرات الصهيونية الى ارضه يتمثل بحدة الصدام بين المتحد القومي الذي ينتمي اليه « كل فرد من افراد الامة بالولادة » وبين الدول « الامبراطورية او الاستعمارية » التي اصطنعت « الدولة » الصهيونية خدمة لاغراضها . وفي السياق اصبح لهذه الدولة اغراضها الخاصة . ما يشير الى ان الاشتباك الاساسي يتحدد اساسا بيننا من جهة وبين الاستعمار القديم بتحوله امبرياليا من جهة اخرى تشكل اسرائيل احدى ادواته العسكرية الضاربة في حوض البحر الابيض المتوسط . وما يشير ايضا الى ان الامبريالية في محاولتها ان « تجبل الاقدام جبلا في مساحة الارض التي تبسط ظلها عليها » ، تصطدم بارادة متحدها من جهة كما حصل لها في حرب فيتنام وتصطدم « بارادة القوميات الاخرى » كما حصل لها في كل حروب التحرير : في الهند الصينية وفي افريقيا وفي اميركا اللاتينية وفي بلادنا بالخصوص . انه استثناء لهذه القاعدة لم يحصل الى الان حتى في كوبا التي تبعد مئة ميل عن فلوريدا ، وحتى في نيكاراغوا حيث تسجلت انتصارات هائلة في خاصرة الام الامبريالية وحيث اثبتت مصالح الشعوب على حساب انماط السيطرة المختلفة . فاذا كانت ظاهرة هذا العصر متمثلة بنزوع الانتشار الامبريالي على مساحة الارض بمجملها فان الظاهرة التي تحمل بذاتها مبدا انفجارها في الانفجارات التي تبعثها لتقوم بوجهها على كامل المساحة التي تريد بسط ظلها عليها . ما يبعثر قواها بعثرة تسمح للشعوب الضعيفة

مواجهتها وتسمح في اختلال موازين القوى نشوء موازين جديدة تتحول يوما بعد يوم لمصلحة الذين يريدون عدالة لشعوبهم لا تقوم الا بالعدالة متحققة لشعوب الارض .

ويذهب الحدث التاريخي بهذا الاتجاه لدرجة اصبحت فيها ظاهرة حروب التحرير ظاهرة مواكبة للانتشار الامبريالي ، بديلة عنه في بعض المساحات ونموذجا للمساحات الاخرى . كما اثبتت مختلف تجارب هذه الحروب اعتمادها على نمط متشابه ووحيد هو نمط الكفاح في حالتي الاستعمار الاستيطاني والامبريالي من الجزائر الى السلفادور ، ومن فلسطين الى الموزمبيق ومن ايران الى زيمبابوي . يقول الجنرال جياب « ان الولايات المتحدة الاميركية هي اقوى بلد في المعسكر الامبريالي ، اقتصاديا وعسكريا . غير ان قوتها بدأت تتقهقر نتيجة مواجهة البلدان الاشتراكية والبلدان الوطنية المستقلة وشعوب العالم الثورية . ففي كل مكان من العالم الان تقف الامبريالية الاميركية موقفا دفاعيا . واثبتت قواتها المبعثرة في جميع انحاء العالم ، على عجزها في انقاذها من الهزائم المفجعة في البر الصيني وكوريا وكوبا .

لقد كشفت الامبريالية الاميركية ، في عدوانها الموجه ضد فيتنام الجنوبية ، عن نقطة ضعف اساسية لقد اجبرت على اللجوء الى سياسة الاستعمار الجديد ، في حين عدم توفر العوامل الهامة من اجل تحقيق نجاح هذه السياسة .

١ ــ حروب التحرير :

ان الدولة الصهيونية تشكلّ اختراقا لقاعدة السوسيولوجية في نشوء الامم . فهي قد ذهبت من المعدودية الدينية لتأسيس نمط من الولاء سماه الاستعمار واعتبراته هي قوميا . فقرار بلفور باقامة « وطن قومي يهودي » يحمل في مضمونه اختراقين لقوانين التطور التاريخي خضعت

لها البشرية في تكوينها الاجتماعي . والاختراق الاول يتمحور حول امكانية انشاء امة وبالتالي وطن بقرار . ما يضع القرار البريطاني في سياق نهج المعدودية ، نهج السلوك الامبراطوري المعتمد على قانون السيطرة والاخضاع في تقرير مصائر الشعوب والامم . والاخطر ما في هذا المنحى انه اعتمد بعد زوال عصر الامبراطوريات القديمة لفترة تناهز العشرين قرناً ، وكأن ذاكرة المملكة البريطانية الحضارية لم ترق الى ما بعد الحقبة الامنية ، ما يفيد عن تواصل نهج الاستعمار القديم في المنطقة الاساس المائرة حول مفهوم القوة الذي يخول اصحابها حق العبث بحقوق الشعوب . من هذا الاختراق الاول انبعثت اذن دولة اسرائيل واستمرت به وبمقوماته الى درجة يستحيل فيها فصل مصيرها عن مصير صاحب القرار بها كما يستحيل فيها تصور اي انقطاع بينها وبينه في التحولات الملمة به وبها على السواء .

اما الاختراق الثاني فيطال الهوية الانتولوجية التي اعطيت منذ البدء للدولة اسرائيل فتحددت بانها يهودية فحل الدين محل الانتولوجية وتم المزج بين الموضوعين على قاعدة المفاهيم السائدة في القرون الوسطى ، قرون المعدودية الدينية في الولاء للدولة . وان هذا النمط هو واجب السواد في مناطق هيمنة الاستعمار دون ان يكون قاعدة يأخذ بها هذا الاستعمار نفسه . ما يشير الى تصميمه منذ البدء على تصميم انماط الحياة المتعارضة مع اصول التكون والتقدم الاجتماعيين كي لا يهتز نهج سيطرته في مدى منظور ويجد نفسه مضطراً من فترة الى اخرى في حالة الاهبة للتدخل المباشر سعياً لتثبيته ، فانشاء الدولة الدينية بحد ذاته تثبيت لعصر المعدودية الدينية في ناحية من العالم كانت لا تزال فيها السلطنة العثمانية تقوم على اساس انماط الولاء المعهودة في القرون الوسطى . ما حمل في مخطط الاستعمار بقاء هذه الحقبة في حقبة اخرى كانت تحمل في انبعاثها بذور تدمير الحائلة بحكم بنيتها ، قيام الدولة العصرية الحديثة ونهجت منذ البدء نهج تعميم نموذجها .

في المحصلة نرى في جوهر مخطط الاستعمار حالة عصيان ضد حركة التاريخ تشكل الدولة الاسرائيلية فيها حجر الرحى الذي يلقي بمرحلة من الزمن وبتعقبه من الارض في غور الماضي وظلماته . وكل هذا الدفع الى الوراء يتم بأحدث ما توصل اليه العصر من وسائل واساليب . ان هذا العصيان لا يقوم الا بعصيان مضاد ولما كان بطال في جوهره الحضارة والتاريخ فانه معني بأن يكون على سوية الفعل في حركة الحضارة والتاريخ . مهمة هذا العصيان المضاد تتمثل في استعادة السياق الصحيح لحركة الحضارة والتاريخ « ان محق الدولة الجديدة المصطنعة هو عملية نعرف جيدا مداها . انها عملية صراع طويل شاق عنيف يتطلب كل ذرة من ذوات قوانا ، لان وراء الدولة اليهودية الجديدة مطامع اجنبية كبيرة تعمل وتساعد وتبذل المال وتمد الدولة الجديدة بالاساطيل والاسلحة لتثبيت وجودها . فالامر ليس فقط مع الدولة الجديدة المصطنعة . انه مع الدولة الجديدة ومع دولة عظمى وراء الدولة الجديدة .

انه صراع طويل وشاق . ونحن نعرف جيدا انه كذلك ونسير بهذه المعرفة واثقين مطمئنين وهذا الاطمئنان نفسه يعني ان النصر في الاخير شيء اكيد لا مفر منه » .

الدولة الصهيونية ليست حالة خاصة بمعنى انه لا يجوز التعاطي معها كما يتم تعاطي الفكر التقدمي الثوري مع الاستعمار فاذا كان كارل ماركس قد رأى ان سر الرأسمالية هو انها تحمل في ذاتها تدمير المجتمع البورجوازي فان سر الشعوب المضطهدة الواقعة تحت قبضة الاستعمار بجميع اشكاله وانواعه هو انها تحمل في حركتها التاريخية حتمية تدمير هذا الاستعمار . » ان الاستعمار هو علاقة شعب بشعب وليس طبقة بطبقة . وهذا ما يشكل بنظري الوجه الخاص للظلم الاستعماري » . واذا كان هذا الرأي قابلا لان يكون صحيحا فهو بمنتهى الدقة فيما يتعلق بالاستعمار الاستيطاني الصهيوني فوق ارض فلسطين ومناطق سورية

عربية اخرى . ويضيف البير ميمي : « غير ان الامتياز الاستعماري ليس اقتصاديا فقط . فعندما نشهدكيف يتعايش المستعمر والمستعمر تكتشف بسرعة ان الاهانة اليومية التي يعاني منها المستعمر والسحق الموضوعي الذي يتكبده لا يقعان على المستوى الاقتصادي وحده . »

الدولة الصهيونية في مفهوم عدد غفير من المفكرين التقدميين معطى غير قابل للنزاع بمعنى انها برأيهم حقيقة قائمة لا يجوز تناول شرعية وجودها انما شرعية اغتصابها لاجزاء دون اجزاء اخرى من الارض التي تحتلها منذ عام ١٩٤٧ لا يطالها الفكر التقدمي في العالم ولا بعض الفكر اليساري في العالم العربي . ويحدث الهروب من التعرض للدولة الصهيونية على قاعدة تفادي الالتباس الممكن حصوله في بعض الاذهان حول الموقف من اليهود . ان رفض الاستعمار يكون رفضا كاملا ومتصاعدا له لا قبولا بجزء منه أو بشكل من أشكاله المتعددة . فالاعتراض على الجزء او على الشكل تسوية في الموقف مع الكل . فاذا كان الفكر اليساري متفقا على ان زوال الاستعمار امر حتمي في المستقبل ، فان هذا الفكر معني بالموقف الحازم امام ظاهرة الدولة الصهيونية كظاهرة استعمارية لابد ان تزول بزوال الاستعمار : « ... ان الثورة الاشتراكية لن تكون كليا ولا بصورة رئيسية عبارة عن نضال البروليتاريين ضد بورجوازيتهم ، قطعا ، انما ستكون نضالا من قبل جميع المستعمرات والبلدان التي تظلمها الامبريالية ، نضالا من جميع البلدان التابعة ضد الامبريالية العالمية ... ان هذه الحركة التي تقوم بها غالبية سكان العالم والتي تهدف في الاصل الى التحرر القومي ، سوف تتحول ضد الرأسمالية والامبريالية ، وربما تلعب دورا ثوريا اكبر مما نتوقع . » ان موقف لينين هذا لا يميز بين مستعمرة واخرى بين نمط من الاستعمار وآخر . فحرب التحرير التي تنهض بها بلدان المستعمرات تقوم بوجه الاستعمار بكامل بنيته دون التمييز في داخله بين طبقة وطبقة لانه بكامل بنيته يدخل في معركة الظلم والاستغلال والاضطهاد ضد شعوب المستعمرات . وتبعة النهوض الثوري بوجه مفاعيل الاستعمار

تقع على الاستعمار ذاته . يقول سعاده « اذا كان الشرق خطرا على أوروبا فأوروبا هي التي جعلت الشرق خطرا عليها . » (تماما كما البورجوازية جعلت من نفسها خطرا على نفسها . حسب كارل ماركس) . ويضيف سعاده : « لم يصبح خطر الشرق حقيقة الا بعد أن ذاق مرارة الاستعمار الاوروبي أشكالا والوانا وما الحرب القائمة في مراكش ، والثورة المندلعة السنتها في الصين والاضطرابات الظاهرة في امم شرقية عديدة ، الا نتيجة ذلك الضغط الذي تأتيه اوروبا في الشرق وهي ليست الا مقدمات لذلك الفاصل الذي يصنع فيه الشرق والغرب قوته الكاملة . . . »

وتأسيسا على هذا الاتفاق حول عدم امكانية الفصل في انماط الاستعمار واشكاله وعلى ضرورة مقاومته بكامل مخططاته وتمظهراته حيث يقع في العالم ، لابد وان يتخذ الموقف ذاته حيال الدولة الصهيونية التي ان قلنا انها صنيعة الاستعمار ام احدى خططه وقواعده فمصيرها يجب ان يكون هو ذاته مصيره وحرب التحرير ضدها هي ذاتها حرب التحرير ضده . هكذا يصبح نهج التفكير اليساري هو ذاته حيال روديسيا وجنوب افريقيا وحيال فلسطين يصبح منسجما مع نفسه ضد العنصرية والاستغلال والاستيطان في كل مكان .

لقد صح توقع لينين حول الدور الثوري لحركة التحرر القومي كما صدقت استشرافات سعاده بصدد نهوض شعوب الشرق على مدى العالم الذي تنتمي اليه . وان طبيعة القوى التي دفعت بهذه الظاهرة الى الواجهة تشير الى ان نهج حرب التحرير هو المعبر الى تحرير فلسطين . في مقالة حول « حرب التحرير » يرى الجنرال جياب ان القوة الحاسمة هي قوة الجماهير الشعبية من عمال وفلاحين وطلبة وجنود وان البورجوازية الوطنية تلعب دورها الوطني الذي عززته ثورة اغسطس عام ١٩٤٥ وحرب المناهضة للاستعماريين الفرنسيين كما عززت وعيها السياسي : « ان حرب التحرير التي يشنها مواطنون في الجنوب لابد ان تواجه مصاعب ومشقات عديدة ، غير

ان مواطنينا الجنوبيين وجيش التحرير قد حققوا بطولة لا مثيل لها ، انتصارات رائعة وخلقوا عوامل ذات اهمية استراتيجية لاحراز الانتصار النهائي ، ومع نمو قوة الشعب السياسية وقوة القوات المسلحة الثورية ، تتوسع المناطق المحررة باستمرار . ويثبت تطور الوضع في جنوب فيتنام بوضوح ، ان العامل الاساسي في كل نضال ثوري ، في كل حرب ثورية ، يظل العنصر الانساني ، والعامل السياسي ، وتظل القوة الحاسمة قوة الجماهير الشعبية . » ان التجربة الناجحة التي خاضها الشعب الفيتنامي ضد الاستعمار الفرنسي والامبريالية الامريكية تشكل محطة هامة ، ان لجهة طبيعة القوى التي كونت التجربة وان لجهة تشكيل النموذج القابل للتصميم في بلدان العالم الثالث . نتبين منها اهمية المدى القومي الاستراتيجي عبر شبكة العلاقات الكفاحية التي لم تنفصل بين الشمال والجنوب كما يتبين دور الشعب بكامل قواه عدا تلك التي خانت قضيتها القومية لارتباط مصالحها بمصالح العدو وهي فئة قليلة لم تستطع الدخول في مقاومة الثورة بل شكلت واجهة لقوى الاستعمار الفعلية . ولقد لعبت هذه دور النموذج الذي تمثله شعوب المستعمرات من ضمن خصائصها القومية في مواجهة الامبريالية .

ان الحركة القومية في الفيتنام اكتسبت مناعة الوحدة في مواجهتها للاستعمار والنموذج القومي الذي برهن عن ثوريته هو ذلك الذي تشكل في بلدان العالم الثالث على اساس معاداته للاستعمار وحركته ضده لذلك انحسرت الفروقات في هذه البلدان بين الحركة القومية والحركة الشيوعية وقامت نماذج التحول كما حصل في كوبا ، والتفاعل في اطار جبهة واحدة كما حصل في لبنان وفي كل الحالات انتهجت الحركة الشيوعية في الاتحاد السوفييتي نهج التعاون مع الحركات القومية المعادية للاستعمار كما تم في مصر والهند واثيوبيا وغيرها من البلدان على قاعدة مواجهة الشعوب للامبريالية لا قاعدة مواجهة الطبقات للبورجوازية « لقد كان صحيحا ما تضمنته افكار لينين حول الامبريالية . ان القوى الاستعمارية ، بما فيها طبقاتها العاملية ، قد كانت العدو الرئيسي لكل

الطبقات في المستعمرات وبأن على هذه الأخيرة / بل يجب عليها / أن تتحد ضد هذه القوى . » ذلك « لان الامبريالية قد احدثت انتقالا في محور تناقضات الرأسمالية ، تاركة تناقضات الامس الكبيرة في صف التناقضات الثانوية المتطبعة بتناقضات جديدة . فلم يعد نضال الطبقة العاملة في بلدان المراكز الرأسمالية هو المحرك الاساسي للتاريخ .. ان الامبريالية قد دفعت الى مقدمة المسرح قوة جديدة مضادة للرأسمالية هي قوة أمم الاطراف التي اصبحت معركتها بمحرك التاريخ . ان نضالا جبارا تتواجه فيه البورجوازية والبروليتاريا ينتهي بشكل حاسم الى الاشتراكية . وبما ان التحرر الوطني لا يمكن أن يتم بقيادة البورجوازية فعليه أن يتتابع من مرحلة الى اخرى في تطور نظام الامبريالية الى الفترة التي تتوصل فيها البروليتاريا الى انتزاع القيادة فيتم التحرر الوطني الذي يطرح المشاكل الجديدة للانتقال الاشتراكي . هكذا تعبر الاشتراكية سبيلها الذي لم يكن من الممكن التنبؤ به مسبقا . » ان صراع الشعوب في حروب التحرير القومية ضد الامبريالية هو الذي يقود اليوم نمط الثورة في العالم ، هذا النمط الذي يغني بدوره تجارب الفكر التقدمي في تحوله الى تجارب ناضجة ومنتصرة .

وفي انتصارها تطرح مشاكل جديدة خاصة بتطور مجتمعاتها في اطار من الاستقلال يخرج عن التبعية المباشرة الى فترة انقضاء زمن الامبريالية وزواله ، المهم هو أن شعوب العالم المقهورة تخوض اليوم حروبها في سبيل التحرر وما يحصل في بلادنا من مواجهة تعود الى الربع الاول من هذا القرن تقع كلها في سياق الصراع مع الامبريالية ، هذا السياق الذي اثبت فعاليته الثورية الناجحة في أجزاء هامة من افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية واذ يرتكز النضال في منطقتنا على محور السيطرة الامبريالية في قاعدتها الاساسية نتيجة حرب التحرير الى فلسطين حيث تقوم الدولة الصهيونية وتمتد .

يعتبر الكواكبي أن الاستعمار رد الشرق الى العصر الحجري . وادهى نوع من ذلك الاستعمار في الشرق هو تأسيس الدولة الصهيونية على أرض

فلسطين والتي تلعب دورا اساسيا في تثبيت هـذا العصر الحجري في الشرق . لكن الفكر الاجتماعي ـ السياسي في العصر الحديث ، في مصـر وسورية الذي كان رازحا تحت ثقل الارث الاسيوي استطاع كما يقول ز . ل . ليفين « بتغلبه على المتناقضات الكامنة فيه والناشئة من الظرف التاريخي ، وضع مجموعة آراء تحولت الى اساس نظري للنهوض القوي للنضال القومي التحرري الذي خاضته الشعوب العربية فيما بعـد ، ولمسيراتها على طريق التطور التقدمي ولتطلعها الى ان تغدو مبدءا ايجابيا للتاريخ العالمي . » ولما كانت دولة اسرائيل تقف بقوة في وجه هذا الدور الايجابي المبدع وتحول دون امكانية الاندفاع القومي للمساهمة في ابداع التاريخ العالمي الجديد، فانه يتعين على المناضلين من اجل تحرير فلسطين التوقف على محطة الانطلاقات الدافعة بقوة الى الامام .

١ ــ ان نهج التسوية مع الدولة الصهيونية كمسلمة قائمة بحكم قوى الامبريالية وقواها الذاتية محكوم بان يقود اتباعه الى التسليم بدور سيطرتها الكاملة . فاذا كانت اسرائيل جزءا اساسيا من الخطة الامبريالية فلا يمكن التفاوض مع هذه الخطة على قاعدة انها لا تريد ان تحقق اكتمالها. فطبيعة الامبريالية لا تحتمل التراجع لانها تتمثل في جوهر تراكم رأس المال ، خاصة وان شعوب دول الامبريالية اخذت تضغط ضغوطاهائلة على حكوماتها بغية عدم حصول الانخفاض في مستواها المعيشي . ولما كان هذا المستوى قد حصل بشكل اساسي نتيجة النهب الاستعماري لبلدان العالم الثالث ، فان اي تراجع في فرض التبعية على الاسواق القديمة ووضع اليد على اسواق جديدة سيؤدي الى اضطرابات هائلة في البلد الامبريالي. وان الازمة التي تعاني منها اوروبا الغربية اليوم وخاصة في بريطانيا وفرنسا وايطاليا واسبانيا تؤذن بامكانية حصول تحولات هامة لن تستطيع الاشتراكية الديمقراطية الوقوف بوجهها او تفاديها . ان هذا الارتباك الاقتصادي الاوروبي هو الذي يدفع باستمرار بأوروبا الى حضن المركز الامبريالي بعد الحرب العالمية الثانية وبعد خسارة الغرب الاوروبي الجزء الاكبر من مستعمراته وبالتالي الجزء الاكبر من الموارد التي كان يحصل

عليها دون ثمن أو بأبخس الاثمان . بفقدان السيطرة الاقتصادية ينحدر الدور السياسي لاوروبا الغربية الى ادنى المستويات . فالمراهنة على مبادرات أوربية مثلا بخصوص قضية فلسطين هي مراهنة خاسرة حتما. وما موقف الولايات المتحدة من اجتماع البندقية الا خير دليل على ذلك . لقد هزمت خطة بلدان السوق مجتمعة مع ان بيان البندقية اعلن انطلاقه من اتفاقات كمب ديفيد . وبدا واضحا ان الولايات المتحدة التي تمتلك الورقة الاقتصادية والعسكرية هي التي تمتلك وحدها الورقة السياسية، واي دور لطرف حليف لها لا يمكن له ان يكون بمبادرة منه ينتزعه انتزاعا بل يعطى له عطاء باطر غاية في التحديد . فاذا كانت هذه هي حدود اوروبا في التفاوض حول الوضوع الفلسطيني مع الولايات المتحدة فماذا تكون قدرة العرب المفاوضين الذين يريدون الوصول الى تسوية ما للقضية ؟ لا شك ان وضع التبعية لهؤلاء تجاه الام الامبريالية يتمايز كثيراعن الوضع الاوروبي ويصل الى مستوى يقارب ارتباط المستعمر بالمستعمر في النماذج الاستعمارية القديمة . ففي المجال الاقتصادي تقبض الولايات المتحدة بقوة على مواردهم من الانتاج عبر وسائله وأدواته حتى التسويق وقواعده وشروطه . حتى راس المال العالمي يستثمر لصالح الامبريالية في مؤسساتها المصرفية المختلفة . وعائدات هذه الموارد تدخل في شريان الجسد الامبريالي لتزيد من صلابته في مختلف اعضائه وخاصة في المجال العسكري حيث يتطور نمط الهيمنة للوصول الى التدخل المباشر عبر القواعد والاساطيل والفرق العسكرية . ما يحول دون الاستقلال السياسي لهؤلاء المفاوضين لدرجة يستحيل فيها تصور امتلاكهم لقوة سياسية خاصة . فكيف بهذه الحال من الارتباط المباشر ، يعتبر هؤلاء انفسهم مفاوضين وهم ليسوا في وضع المشاركة بل في وضع الخضوع والاتباع ؟ لقد دخل السادات مباشرة في نهج التسوية قبل العربية السعودية . اعتبر نفسه طرفا في المفاوضات فخضع لجميع شروطها حتى فقدت مصر

ما استطاعت أن تنجزه من استقلال عبر نضالات شاقة ومريرة عبرت عن نفسها فقتلته . ان نهج التسوية التي تحمل الرجعية اواءه ليس بين طرفين متنازعين بل يقع في صلب خطة الطرف الامبريالي الصهيوني حيث تلعب الرجعية دور المعبر الذي يقود الى نجاح هذه الخطة . ان الرجعية العربية التي عبرت عن نفسها بوضوح في سلوك السادات وفي مشروع الامير فهد تنطلق من ان الدولة الصهيونية صاحبة حق مشروع في احتلال فلسطين . وهي على هذا الاساس تفاوضت او تريد التفاوض معها . ان الرجعية العربية تعتبر ان الامبريالية الامريكية صاحبة حق مشروع في وضع اليد على شعوبها وهي على هذا الاساس تلتحق بها وتعتبر نفسها انها تفاوضها . لقد اقتنع شعب غينيا ـ بيساو بحق الفلسطينيين في أرضهم والرجعيون العرب يفرطون بهذا الحق . يقول كابرال في احدى مقابلاته الصحفية في مجلة القارات الثلاث عام ١٩٧٣ :

« نحن ندافع عن القضايا العادلة انطلاقا من مبدئنا الاساسي باننا مع العدالة والتقدم الانساني وحرية الشعوب . من هنا ايماننا أن خلق اسرائيل الذي انجزته الدول الامبريالية للحفاظ على هيمنتها في الشرق الاوسط كان اصطناعيا وبهدف توليد معضلات في تلك المنطقة المهمة للغاية . هذا هو موقعنا . لقد عاش الشعب اليهودي في بلدان مختلفة من العالم ، ونحن نأسف شديد الاسف لما ارتكبه النازيون بحق هذا الشعب ، حيث قضى هتلر على ما يقارب الستة ملايين يهودي خلال الحرب العالمية الاخيرة . غير اننا لا نرضى ان يعطيهم ذلك حق احتلال جزء من الامة العربية . اننا نؤمن بحق شعب فلسطين بأرضه لذلك نعتقد أن جميع الاجراءات التي تقوم بها الشعوب العربية والامة العربية من اجل استرجاع الارض الفلسطينية هي اجراءات مشروعة . اننا نقف في هذا الصراع الذي يهدد السلم العالمي مع الشعوب العربية كليا . وندعمها دعما غير مشروط. نحن لا نبغي الحرب ؛ غير اننا نريد ان تنال الشعوب العربية حرية شعب

فلسطين وتحرر الامة العربية من الهيمنة والاضطراب الامبرياليين اللذين تشكلهما اسرائيل . » .

ان الولايات المتحدة تعتبر جيدا من الدرس الاوروبي بالرغم من ان شعوب العالم المقهورة بدات منذ مدة تتلقاه بلغة يكللها التفاوض ولاتنطلق منه على الاطلاق . فالتفاوض الذي حصل في باريس بين ثوار الفيتنام وممثلي الادارة الامريكية اتى نتيجة التفاوض الاساسي بالسلاح لينظم الانسحاب الامريكي النهائي من الفيتنام . هذا هو النمط الذي يجب ان يتم الاتعاظ به في نهج التعاطي مع الامبريالية في سياق الاتصال بها . وما ينطبق على الامبريالية ينطبق بذات الوقت على الصهيونية والرجعية . فهذه الاخيرة لا تستمد قوتها من مقدار تمثيليتها لمطامح شعوبها ومصالحهم بل من عوامل اخرى متعددة تعود بأغلبيتها الى مفاعيل التخطيط الاستعماري الذي ورثته الامبريالية الامريكية مضيفة اليه اضافاتها الخاصة بها . فالانتقال من طور الاستعمار العثماني الى طور الانتدابات ومن ثم طور الاستقلالات المختلفة تم في ظل ثابتين اساسيين :

الاول يتمحور خلف الكيانات الهزيلة .

الثاني حول ايجاد الادوات المناسبة لهذه الكيانات عبر ما كان قد قدم به . لذلك من مداخلات في ظل مرحلة الامتيازات . ان العلاقات بين الكيان وأداة الحكم فيه قد نسجت على نول المصلحة الاستعمارية فالتجزئة القومية حصلت داخل الخريطة الواقعة تحت سيطرة الانتداب بالرغم من تواجد قوته العسكرية على كامل الخريطة . فالتقسيم الذي حصل مثلا في لبنان وسورية في ظل السيطرة الفرنسية هو ذاته الذي حصل في فلسطين والاردن والعراق تحت مظلة الهيمنة البريطانية . والفئات الحاكمة التي وجدت في كل هذه الكيانات اوجدت بالاساس لتثبيت التجزئة ولتثبيت هيمنة الانتداب . والدلالة على ذلك تظهر في ان هذه الفئات لم

توحد ما جزاه الاستعمار بعد جلائه بل على العكس من ذلك فصلت ما كان موحدا من مصالح اقتصادية وثقافية في ظل الاستعمار وكرست الفواصل والفوارق تكريسا لبقائها في الواقع التي اكتسبتها من الاستعمار .

وانتصرت المصلحة الخصوصية على حساب المصلحة القومية . وبانتصار هذه المصلحة التي هي اصلا من صنع الاستعمار توطدت هيمنته في بنى الاستقلال . واخطر من ذلك تلك الحروب التي خاضتها هذه الفئات الحاكمة من أجل فلسطين والتي كان القصد منها ليس محاربة اسرائيل بل تقاسم ما تبقى من فلسطين في ظل قيام دولة اسرائيل وانتشارها .

ان هذه الرجعية مارست دورها هذا منذ تنصيبها . فبحكم كونها كذلك لابد من التعاطي معها بالاسلوب الذي تعاطت معه ثورة اميركا اللاتينية وآسيا وافريقيا المنتصرة . ان هذا الاسلوب الذي نجح في الصين وفي لاوس وكمبوديا وفيتنام وكوبا ونيكاراغوا وغينيا — بيساو ، وفي مصر والشام والعراق وفي ليبيا والجزائر قد تحول الى نموذج لا يجوز الحركة التحرر العربية أن تتجاهله . صحيح ان لكل بلاد ولكل ثورة ظروفها الخاصة بها ، لكنه أصبح من الثابت ان نهج التسوية عبر الرجعية يصب في خطة الاستعمار ونهج التفاوض معها يتم عبر التخلص منها .

٣ — في غمرة المجابهة هذه لا ينحصر موضوع تسوية القضية الفلسطينية بالفلسطينيين . انه لا يرتسم داخل الاطار الذي وضعته الخطة الاستعمارية كمقدمة ضرورية لانشاء دولة اسرائيل . على هذا المفصل لا يمكن لحرب التحرير ان تكون فلسطينية بل قومية . وان قومية المعركة الفلسطينية نتاج للمواجهة الاساسية مع الامبريالية التي ارادت ان يقوم الكيان الفلسطيني ليلغي والكيانات الاخرى لتلغى . على

هذا الفصل لا بد من مناقشة موضوعة التركيز على الهوية الفلسطينية في سياق الحدث التاريخي . فالاستفادة من هذا النهج تؤدي اغراضا من النضال دون العبور بـه الى كامل مقاصده . فاذا كانت الامبريالية والصهيونية تتوخى حصول كامل خطتها دون تجزئة فيها فان هدف انشاء الدولة الفلسطينية مقابل جزء من ارض فلسطين يتعارض مع مشروع الامبريالية والصهيونية في الاساس . ولذلك فان البدائل المطروحة والمعبر عنها بما يسمى الحكم الذاتي هي اقصى ما يمكن التوصل اليه . وهو مفروض لانه لا يمت الى مشروع الدولة بصلة . لقد انجزت الامبريالية واسرائيل حلما لم تكن لتتوقعه باتفاقيات كمب ديفيد ومعاهدة واشنطن ، ومع ذلك كان اقصى ما توصلت اليه في التنازل هو مشروع الحكم الذاتي . فالدولة الفلسطينية تعني في المفهوم الامبريالي الصهيوني الخطوة الاولى في رحلة التراجع وبداية الانهيار للمخطط المنتصر تدريجيا منذ بداية القرن . وان لمن الصعب القبول بفكرة التنازل في مرحلة النجاح ووضع اليد بقوة على مقدرات المنطقة العربية وامكاناتها في نهاية هذا القرن . فبعد ضم الجولان والتمدد في جنوب لبنان واقامة المستعمرات اعتمادا على لغة التوراة في معجم رئيس الوزراء الاسرائيلي لا يمكن الاعتبار بأن مشروع الدولة الفلسطينية مشروع سهل المنال . بل على العكس من ذلك تتضح معالم المشروع الصهيوني بقوة عبر محاولة صهينة المنطقة والحاق اجزاء منها بالتدريج . وبتوطئ على الارض هدف بناء الدولة الاسرائيلية الكبرى . وان شيئا الى الآن لم يحل دون ذلك ولن يحول دونه الا التمسك بمبدأ حرب التحرير القومية وبناء الدولة القومية بوجه الدولة القومية الصهيونية المتحققة رويدا رويدا . فالامبريالية الاميركية واسرائيل تريدان بوضوح ظاهر توسع الدولة الصهيونية الى حدود سورية الطبيعية والقبض عليها بكاملها للقبض النهائي على العالم العربي واخضاعه الى فترة غير منظورة .

فموقف الولايات المتحدة في مجلس الامن وفي الجمعية العامة للامم المتحدة حيال القرار الاسرائيلي بضم الجولان يتأسس على مصلحتها المرهونة بمصلحة اسرائيل لان هذه جزء من خطتها . فتهديد العالم بأسره والتصدي للارادة الدولية بأسرها دلالة على مقدار الالتزام الامبريالي باسرائيل ، على لا منطقية تناقض المشروع الامبريالي مع نفسه . فأي نهج لتسوية القضية الفلسطينية عبر الولايات المتحدة ام بمشاركتها يعني انتصارا لاسرائيل على حساب القضية القومية لان وضع اليد ، على فلسطين قد تم لاسرائيل والمعركة الآن تدور خارج الحدود والخطة تقضي بان تتوسع في هذا المجال . لكن بوادر الابداع في التاريخ القومي لم تنطفىء يوما من الايام منذ بداية القرن . وهذه البوادر تتعاظم يوما بعد يوم ويتوجب الاسراع بها نوعا وحجما لانشاء التوازن ومن ثم العراك الذي لا بد ان يحسم مع الامبريالية . وان هذا الحسم سوف يكون بمثابة بداية الانحطاط في عصر الامبريالية وعبور البشرية الى مراحل اخرى من حياتها .

« ان حقيقة قضية فلسطين هي في عقيدة ناجحة وارادة قومية فاعلة تريد الانتصار . »

« ان الصراع بيننا وبين اليهود ، لا يمكن ان يكون فقط في فلسطين . بل في كل مكان حيث يوجد يهود قد باعوا الوطن وهذه الامة ، بفضة من اليهود . ان مصيبتنا بيهودنا الداخليين اعظم من بلائنا باليهود الاجانب . . ان لنا في الحرب سياسة واحدة هي سياسة القتال . هذه هي سياستنا الواحدة في الحرب . اما السياسة في السلم ، فهي ان يسلم اعداء هذه الامة للامة بحقها ونهضتها . »

٢ ـ الكفاح المسلح :

في ذلك رفض موضوعي لنهج التسوية من اي مصدر اتى ووضع الخطة النظامية الدقيقة لمواجهة الخطة المعادية . وفي ذلك قناعة بان الانتصار في هذه القضية ايذان لبدء عصر عربي جديد ومرحلة اخرى

من مراحل تطور الانسانية يتم فيها الاعتماد على الحق في جوهر العلاقات وصياغة انماط مواصفاتها .

١ ـ ان تاريخ الكفاح المسلح من اجل فلسطين يعود الى تراث عميق وعريق اسسه شعبنا عبر التصدي لجميع اشكال الهجوم ضدها .فلم تتم المواجهات مع الهجرات اليهودية من مبدأ الحق في الارض بل من ميزة الصراع من اجل الاحتفاظ بالحق ، تلك الميزة التي اكتسبها شعبنا عبر سجال طويل على المكان في الزمان . فلقد حاول كثرة من اولئك القدامى الذين كتبوا تاريخ هذه المنطقة اظهارها وكانها جزء من ذلك الشرق الذي اعطوه صفات الاتباع والتسليم والانتظار بينما يعبر ما فيها من المنحوتة الى الشكل الفني الى الحدث على طاقة الصراع المتفجرة دون استكانة . فتاريخ هذه المنطقة منذ اقدم العصور تاريخ انفجارات متواصلة انتجت نمطا حضاريا تأسس على الاعتماد وعلى العقل والمعرفة وتثبت في انجازات لا تزال البشرية تنعم بها الى الآن . وعلى كثير من معطيات هذه المنطقة اسس غارودي رايه حول بؤس محاولات عصر الامبريالية للقضاء على حضارات يعود عمرها لآلاف السنين بوسائل تدمير انجزتها بمئات معدودة من السنوات .

٢ ـ مع بدء الهجرات اليهودية بدأ الكفاح من اجل فلسطين . فلقد قامت الاحتجاجات بوجه بلفور وضد زيارته للمنطقة والدعوات الى معاقبته كما دارت معارك شرسة في فلسطين عام ١٩٢٢ مع المستوطنين الصهاينة قتل فيها عدد غير قليل منهم . والقد كان منذ البدء لهذه المعارك تأثيرها الكبير فتركت عائلات يهودية كثيرة فلسطين وعائلات أخرى كثيرة تراجعت في عزمها على الاستيطان . في ذلك يقول سعاده : « نحن لا نقول بالاعمال الجنونية لاننا لا ندعو الى الانتحار الوطني ، لذلك نرجو القراء الا يسيئوا فهم ما نقول فما حدث في فلسطين سنة ١٩٢٢ لم يكن عملا جنونيا بل كان في غاية الحكمة وقد يوجد كثير يفسرون

الحكمة بالجنون ولكن الحقيقة لا يغيرهاكلام الذين اجهل منهم ممن يستمع اليهم . » وتكررت هذه الثورة عام ١٩٣٦ فاجهضتها الرجعية العربية ثم جرت محاولة اخرى عام ١٩٣٧ انطفات في المهد ولم يتوان مناضل عام ١٩٤٧ عن حمل بندقية انكسرت في غياب الخطة والقيادة وتهالك الرجعيين على الحفاظ على عروشهم . في تواصل هذه الانفجارات دلالة على تمسك اصحاب الارض بأرضهم وصراعهم من اجل الاحتفاظ بها . ما يقود الى التوقف امام هذه التراث العظيم في المقاومة واعتماد نهج الكفاح المسلح في فلسطين . الا ان فشل القتال كان حتميا في ظل التهالك على المصالح الخصوصية من قبل الذين نصبهم الاستعمار ملوكا ورؤوساء ، وفي ظل غياب الخطة النظامية الدقيقة المعدة للمواجهة . ولقد برز في كل هذه الانتفاضات قادة شعبيون ابدوا من البطولات ما عز نظيرها ولكن جميع هؤلاء القادة بقوا على سوية رد الفعل الثوري لا على سوية الفعل الثوري الى ان نشات المقاومة الفلسطينية في المحيط القومي بقرار يكمن فيه سر استمرار هذه المقاومة وتصاعد فعلها ورصيدها . كما يكمن فيه سر مواجهتها في آن للرجعية وللصهيونية وللامبريالية معا .

٣ ـ ان نشوء المقاومة الفلسطينية عام ١٩٦٥ نتاج للتراث الثوري القومي ومحصلة لتجارب عديدة في سياق الاصرار التاريخي على الحق على قاعدة الصراع من اجله . ومنذ الطلقة الاولى كان خيارها هو العمل الفدائي في الكفاح المسلح الطويل الامد . هذا النهج استطاع ان يخرج فلسطين من نهج التسوية التاريخي الذي تعاطى معه الذين نصبوا انفسهم اولياء على فلسطين . وكان لابد منذ البدء بأن يحصل الصدام مع هؤلاء لان تناقضا حادا في النمطين لا يولد الا صراعا حادا بينهما . ولكن قضت الرجعية على ماسبق من ثورات حاولت استكمال خطتها

بالقضاء على ماالستجد منها وهنا حصلت المفارقة الاولى في تاريخ هذه المقاومة اذ اولت ظهرها مكشوفا للملكية في الاردن متجهة الى فلسطين فأتتها الضربة القوية من الخلف حين عجزت كل وسائل اسرائيل وقوتها العسكرية من القضاء عليها وجها لوجه . وما معركة الكرامة الا احدى الدلالات على ذلك . لقد اقتنعت الرجعية في الاردن انها ولابد مضمحلة في اتون الصراع مع العدو وان دورها لابد ان يلتغي في افتقاده لمبرر وجوده فكان مخرجها الوحيد ان تقضي على العاصفة التي كادت ان تطيح بها . على هذا الفصل لم تستفد المقاومة من التاريخ فوقعت في الاردن ضحية ما وقعت سابقاتها وبدل ان يلملم العدو جراحه اخذت هي بلملمة جراحها . لكن قساوة الدرس لم تطفيء شعلة اللهب المتفجر وعادت المقاومة لتقف على قدم واحدة بثبات مع التقدميين .

وحاولت الرجعية في لبنان ان تعيد الكرة الاردنية فلم يتم لها ما ارادت لاسباب عديدة اهمها استيعاب المقاومة لبعض عظات الاردن . بابتداء المعركة ضدها من قبل السلطة وان من قبل الميليشيات الانعزالية كانت المقاومة في صلب الخيار الوطني اللبناني الذي اعطاها الدرع الواقية بوجه منطق الكيانات . ان نجاح الخطة الفلسطينية باظهار الشخصية الوطنية والتركيز عليها على الصعيد الدولي كان يحمل في تحققه خطر الفصل بين شخصية الكيان الفلسطيني والكيان اللبناني . لكن انتصار الوعي القومي لدى صفوف الجماهير اللبنانية نتيجة خوض هذه الجماهير معارك المقاومة منذ نشوئها ونتيجة تربيتها القومية التاريخية ادى الى فشل مخطط الايقاع بين الطرفين ، انتصار الكيان على الامة . ولقد تجمع الجهد المعادي على هذا الفصل بزخم ادى الى تحول حركة الانعزال الى حركة قتال كما ادى من جهة اخرى الى تطور النضال القومي الديمقراطي الى نضال مسلح في لبنان . كما احدث تعميما في نموذج الكفاح المسلح مقابل تصميم نموذج الصهينة . والمعركة الآن تدور بين النموذجين وقابلية كل واحد منهما للتعميم . ويقع في هذا الاطار تأسيس التحالف الفلسطيني الوطني اللبناني السوري على قاعدة التصدي لمفاعيل

اتفاقيات كمب ديفيد ومعاهدة واشنطن يعني على قاعدة الكفاح المسلح ضدها اذ تدخل جميع هذه القوى بحرب مباشرة مع الطرف الآخر .

٤ ــ ان هذا النمط الوحدوي اثبت عن جدارته في البقاء انطلاقا من صحة نشوئه وتطوره . فلقد فشلت جميع انماط الوحدات السابقة ولم تعمر طويلا لانها اتت نتيجة قرارات دون ان تولد في رحم القرار الاساسي لخيارات شعبنا وهو قرار العصيان الذي تمثله الحركة الصهيونية . وفي ذلك دلالة واقعية تثبت صحة النظرية التي تعتمد نهج الكفاح المسلح لصيانة النمط الوحدوي المتقدم . كما في ذلك اثبات على جدلية العلاقة بين طرفي المعادلة . فكلما تعمق نهج الكفاح المسلح تعمقت اسباب الوحدة وكلما ترسخت هذه الوحدة ترسخت فعالية الكفاح . بذلك تتاح الفرصة الحقيقية لاسقاط الصهيونية والتصهين كما يتبين المعبر الى اسقاط عصر الامبريالية والاتباع . لقد صحت هذه التجربة في الفيتنام كما اخلت في التعبير عن ذاتها بقوة في لبنان . لكنها بالرغم من هذا النجاح في الصمود الى الآن تتهددها اخطار كبيرة تصل الى حدود الالغاء ان بقيت محصورة بساحة لبنان دون الساحة القومية الفسيحة . على هذا المفصل لابد من الاشارة مرة اخرى بأن النموذج الوحدوي المعتمد نهج الكفاح المسلح يمكن له ان ينزلق هو ايضا الى محدودية الكفاح المسلح ضمن الكيان مما يضع التجربة الرائدة في تقفص النفي لنجاحها . ان الثورة لا تضع حدودا للمد الذي ينطلق منها . وان هي فعلت ذلك لاي اعتبار من الاعتبارات كان تتم تسوية مع هذا الكيان او ذاك على حساب امتدادها ، فانها تكون بذلك قد حالت دون الانفجار الذي احدثته في بنية الوعي القومي وفي مداه الاستراتيجي .

ان نهج التسوية مناقض في جوهره لقضية تحرير فلسطين . فنشوء المسألة الفلسطينية منذ الربع الاول لهذا القرن كان اختراقا منذ الاساس لمبادىء الحق والعدل . وأية تسوية في هذا المجال هي تسوية على حساب الحق والعدل . مما يؤدي الى زوال القضية القومية بأسرها لانها تتمحور بحجمها حول هذا الموضوع . واذ يلتقي الآن نهج حركة التحرر العالمية على اعتبار قضية تحرر الامم والشعوب المحرك الاساسي للتاريخ فان

ابداع تاريخ للبشرية جديد ينطلق من نهج الكفاح المسلح كطريق موصل وحيد . لقد اثبت هذا النهج عن صحته بتجارب منتصرة لا يستهان بها على مدى العالم بقاراته المضطهدة . وهو يؤكد نفسه في بلادنا بعدما استنفدت كل الوسائل الاخرى . ولانه قابل للنجاح فان الحملات ضده تتصاعد وتزج كل القوى لمعارضته واخطرها تلك التي تنطلق من الداخل لتلتقي آجلا ام عاجلا مع ما يأتي من الخارج . لذلك فان اعتبار المهمة الثورية ضد الرجعية مهمة متأخرة على غيرها يصب في اتجاه الاعتراف بحالة الحصار والاختناق ضمنها رويدا رويدا حتى تنقض كل الصقور على الفريسة . فالطائر لا يحلق في القفص والبحر يموت في البحيرات .

هوامش :

(١) انطون سعادة : نشوء الامم ــ بيروت ١٩٧٦ .

(٢) الجنرال جياب : مقالات فيتنامية ، دار ابن خلدون ، بيروت ١٩٧٤ .

(٣) انطون سعادة : مراحل المسألة الفلسطينية ١٩٢١ ــ ١٩٤٩ ــ بيروت ١٩٧٧ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) لينين : « حركة شعوب الشرق الوطنية التحريرية ــ دار التقدم موسكو ١٩٦٧ نقلا عن حرب التحرير القومية ــ انعام رعد .

(٧) سعادة : مجلة المجلة ــ اذار ١٩٢٥ ــ

(٨) المصدر السابق .

(٩) الجنرال جياب : مقالات فيتنامية ــ دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٤ .

(١٠) جون كاونسكي : التحولات السياسية في البلدان المتخلفة ــ دار الحقيقة ــ بيروت ١٩٨٠ .

(١١) ز . ل . ليفين : الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث ــ دار ابن خلدون ــ بيروت ١٩٧٨ .

(١٣) غينيا ــ بيساو وجزر الرأس الخضر ــ دار ابن خلدون ــ بيروت ١٩٧٥ .

(١٤) انطون سعادة : مراحل المسألة الفلسطينية ــ منشورات عمدة الثقافة بيروت ١٩٧٧ .

(١٥) المصدر السابق .

(١٦) المصدر السابق .

(١٧) المصدر السابق .

(١٨) المصدر السابق .

إسرائيل مشروع امبريالي صهيوني

صخر أبو نزار

لقد كانت التحليلات السائدة في منطقتنا اسيرة لبروتوكولات حكماء صهيون ولمنطق ان وعد بلفور كان هبة من بريطانيا العظمى لحاييم وايزمن تقديرا لنشاطه العلمي في اكتشاف مادة « الآسيتون » الحارقة التي ساعدت الانجليز في الحرب . اما الاسباب الحقيقية وقوانين الصراع الاستعماري والامبريالي فكانت لا تعطى اي اهتمام .

لماذا تساند بريطانيا الحركة الصهيونية ؟

يقول وايزمن « ان بريطانيا كانت ستخلق الصهيونية لو لم تكن قائمة، ولكن ألم تحاول بريطانيا خلق الصهيونية قبل قيامها ؟

يرد اللورد شافتسبري الذي كتب عام ١٩٧٦ :

« انها ضربة لانكلترا اذا استولت اي من الدول التي تنافسها على سوريا . فامبراطوريتها التي تمتد من كندا في الغرب الى كلكتا واستراليا في الجنوب الشرقي تقطع الى قسمين ــ وعلى انكلترا ان تصون سوريا لنفسها . الا تستدعي السياسة انجلترا الى تنمية قومية اليهود ومساعدتهم . ان انكلترا دولة تجارية بحرية عظمى ويجب ان ينسب اليها الفضل في استيطان اليهود في فلسطين .»(١)

وقبل ذلك بسنوات كتب بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا رسالة الى السفير البريطاني في القسطنطينية يشرح لماذا ينبغي على السلطان تشجيع هجرة اليهود الى فلسطين وكان ذلك في عام ١٨٤٠ قائلا :

« ان عودة الشعب اليهودي بموافقة وحماية ودعوة السلطان سوف تجعله يقف حائلا دون ايــة مخططات شيطانية مقبلــة لمحمد علي او لخليفتــه . »(٢)

من الواضح ان دوافــع تنمية انجلتــرا لقومية اليهــود والدعوة لاستيطان فلسطين لم تكــن لاسباب دينية وانما انسجاما مــع قوانين السياسة الاستعمارية والامبريالية . ولتحديد طبيعة العلاقة بين الدول الاستعمارية والامبريالية من جهة ، وبين الحركة الصهيونية واسرائيل من جهة اخرى ، علينا تحديد القوانين التي توضح هذه العلاقة .

---

(١) د . اميل توما ــ ستون عاما على الحركة القومية العربية ص ٦ .
(٢) د . عبد الوهاب الكيالي : الصهيونية (ج ٢) ١٠٩ .

اذا حددنا مفهوم القانون بانه العلاقة الجوهرية بين الظواهر فاننا نستطيع ببساطة ان نستعرض ظواهر السياسة الاستعمارية الامبريالية لنكشف ان الدول الامبريالية تتخذ مواقفها دائما انطلاقا من قوانين محددةمنسجمةمع الفكر الراسمالي الاستغلالي. ونحن اذ نتفق معالقائلين بأن الامبريالية هي اعلى مراحل الراسمالية فانه من الضروري توضيح طبيعة هذه المرحلة وتحديد ماهيتها حتى يصبح الحديث عن القوانين التي تحكم سياستها اكثر وضوحا . ان تطور الراسمالية يصل بها الى الدرجة التي يتركز فيها رأس المال والانتاج الى الدرجة التي تفرض الاحتكارات الضخمة سيطرتها على الحياة الاقتصادية . ولتحقيق المزيد من تلك السيطرة يتم مزج رأس المال الصناعي برأس المال المصرفي ليتم التحكم بكل نواحي الحياة الاقتصادية من قبل قلة من المموِّلين وعبر تصدير رأس المال المالي الى الخارج واستثماره في مجالات الاستخراجات الصناعية والمصادر الطبيعية الى جانب انشاء بعض الخدمات الضرورية كمرافق الكهرباء والمياه والمواصلات لتتم السيطرة على مناطق شاسعة من العالم من قبل مجموعة الدول الاستعمارية ، تنشأ الاحتكارات الدولية التي تقتسم العالم حيث تبدأ حالات التنافس بين الدول الاستعمارية الامبريالية تلعب دورها مما يدفعها الى الصدام المباشر وغير المباشر فتصبح الحروب او التهديد بها هي الطريق الى المزيد من السيطرة والهيمنة ومناطق النفوذ . فتتحكم بالحياة الدولية قوانين الاستعمار والامبريالية التالية :

اولا ــ قانون التفوق

لقد تبنت الامبريالية فلسفة سياسية تقوم على اساس التقدم والانجاز العلمي في مجالات التطور وعلم الاجناس وعلم التشريح المقارن لتخدم اهدافها من جهة ولتعطيها غطاء شرعيا لتحقيق هذه الاهداف الانسانية من جهة اخرى تحت شعار عبء الرجل الابيض باعتباره رسالة حضارية تحمله واجبا عظيما فتجعله بالمقابل يعطي نفسه حقوقا تتسم بالقوة .

ان مصدر هذه القوة انما هو نوع معين من المعرفة ونوع معين من الممارسات التي تضفي عليها تلك القوة ثوب الشرعية . انها المعرفة التي اكتسبها العلم الاوروبي في مطلع القرن التاسع عشر بغية تصنيف سكان العالم الى فئات ودرجات من حيث القوة والضعف ، ومن حيث التخلف والتقدم ومن حيث التفوق والتدني . فالتصنيف المنهجي اذن هو الانجاز الرئيسي للعلم الاوروبي في القرن التاسع عشر . ولقد استمدت الامبريالية من هذا الانجاز مبدأ مشوها طبقته عامدة متعمدة على عالم البشر . ولو اننا امعنا النظر في علم التشريح المقارن مثلا لوجدناه يصنف المخلوقات النباتية والحيوانية الى سلالات وانواع واجناس يتميز بعضها عن بعض بحيث تكون لكل فئة منها خصائص معينة . ولقد انتقل كغير وداروين بهذه النظريات خطوات بعيدة فطبقت على نحو خاطىء على الانسان والمجتمعات بحيث اصبح الانسان يقسم الى اجناس : الجنس الابيض والجنس الاحمر والجنس الاصفر والجنس الاسمر والجنس الاسود واعتبر الجنس الابيض جنسا يتمتع افراده بالعقلانية وسلامة التفكير والسرعة والقدرة على السيطرة . اما السود فقد اعتبروا كسالى وخاملين وعاجزين عن التفكير السليم كما وصف الصفر بانهم جبناء ماكرون . اما الحمر فقد اعتبروا متوحشين الخ . ولقد بلغ هذا التمييز ذروته في كتابات غوبينو وشبنغلر .

ورافق هذا التمييز تمييز بين اصول اللغات المختلفة وتقسيمها الى فئات ومجموعات لكل مجموعة منها خصائص معينة . بلغت الابحاث ذروتها في دراسات وليام جونز وفرانز وفريدريك شليغل . عام ١٨٠٨ قال شليغل ان هناك فرقا بين اللغات الهندية الجرمانية والآرية من جهة وبين اللغات الحامية من جهة اخرى . فقد ادعى ان اللغات الآرية تمتاز بالابداع والخلق والحيوية والجمال في حين ان اللغات السامية تتصف بالميكانيكية والعجز عن التجدد والانطلاق من ذلك ، كما فعل من بعده ارنست رينان الى التعميم فقال ان التمييز والتفوق الآري ليس

مقصورا على الجانب اللغوي بل يشمل كذلك العقل والثقافة والمجتمع والحضارة .(١)

وعلى هذا الاساس تم تصنيف العالم الى مجتمعات متحضرة واخرى متخلفة وان الرسالة الحضارية للرجل الابيض تقتضي منه المحافظة على سلامته حيث البقاء للاصلح دون الاهتمام بأية حقوق لتلك الفئات المتخلفة. فقد اعطى الامبرياليون الحق لانفسهم بمصادرة اراضي العناصر الملونة باعتبارها ليست من بني البشر ولا تستحق الحياة الا بالقدر الذي تستطيع به ان تخدم العناصر البيضاء كجزء من ممتلكاتها وادوات انتاجها . ولا يتورع الامبرياليون من اقتناء العناصر الملونة واستبدالها بعناصر بيضاء تماما كما يستبدلون الجواميس البرية بالابقار النظيفة .

(وقد يبدو ذلك عملا قاسيا اشبه ما يكون بالقتل . ومع ذلك فقد امكن الاستعاضة عنها بضعف عددها من الابقار النظيفة . وفي ذلك العام نفسه كان هناك نحو ١٦٥٠٠٠ نسمة من القبائل الهندية الغربية المختلفة التي كانت تعتمد في غذائها على تلك الجواميس . وهؤلاء ايضا ذهبوا وحل محلهم ضعف عددهم من الرجال والنساء البيض الذين حولوا الارض الى ارض مزدهرة كالورود . اضف الى ذلك ان هؤلاء الناس الجدد ، اي البيض ، يمكن تعدادهم وجباية الضرائب منهم وادارة شؤونهم وفقا لنواميس الطبيعة والحضارة . وهكذا فان هذا التغيير كان مفيدا وسنستمر فيه حتى النهاية) (٢) .

ومن هنا فان قانون التفوق الذي تعتمده الامبريالية يقوم على الاسس التالية :

١ ـ ان الكائنات البشرية والطبيعية تتميز عن بعضها البعض بناء على صفات وراثية . فبعضها متقدم وبعضها متأخر . وبعضها قابل للتطور . وبعضها خامل غير قابل للتطور . وبعضها متفوق والاخر متدن .

(١) ادوار سعيد . الصهيونية حركة عنصرية ، ابحاث ، ص ١٩٣٢ .
(٢) المصدر السابق ص ١٣٤ .

٢ ـ ان الجنس الابيض هو ارقى الكائنات . وهو السيد وكل ما دون ذلك عبيد له .

٣ ـ يتحمل الجنس الابيض عبء الرسالة الحضارية التي اهم مقوماتها المحافظة على نقاء العنصر الابيض والعمل على انتشاره على مدى المعمورة .

٤ ـ كل الارض هي ملك للرجل الابيض والعناصر الملونة جزء من ممتلكاته يحق له ابادتها اذا تعارضت مع رسالته الحضارية .

ثانيا : قانون المصلحة :

ان هدف القوى الامبريالية وهي تنفذ قانون التفوق الامبريالي هو تحقيق مصالحها في استغلال المناطق المستعمرة ارضا وشعبا . ويحكم القوى الامبريالية في ممارستها اليومية قانون المصلحة التي يجعلها تحسب في كل خطوة كمية الربح التي تحققها . فمصلحتها دائما هي الاساس وهي القانون الثابت . ويبدو هذا واضحا من اتخاذ نفس الدولة مواقف متناقضة من قضية محددة انسجاما مع تحقيق المصلحة في كل موقف . فليس في سياسة الدول الاستعمارية الامبريالية مبادىء ثابتة انما هنالك مصالح ثابتة ، وهذا هو جوهر قانون المصلحة . الامثلة لتوضيح هذا القانون كثيرة ولكم ما يهمنا هو ما يتعلق بقضية فلسطين وبمنطقة الشرق الاوسط .

فنابليون مثلا ، عندما استولى على مصر عام ١٧٩٨ واتجه شمالا لاحتلال سورية ، ادرك المكانة الاستراتيجية لفلسطين . فهي بوابة مصر . والذي يريد ان يحكم مصر عليه ان يدافع عنها في فلسطين . والذي يحكم فلسطين يضع مصر تحت رحمته ويتحكم بعقدة المواصلات في العالم ، ولذلك اصدر نابليون في ٢٠ نيسان ١٧٩٩ نداء الى اليهود في العالم دعاهم فيه الى النهوض والاتفاق حول عمله من اجل اعادة بناء دولتهم في ارض الاجداد واصفا اياهم (بورثة اسرائيل الشرعيين) . كان نابليون

يطمح ان تكون الدولة اليهودية في فلسطين عونا له على احتلال سورية الطبيعية وحليفا له في صراعه مع بريطانية .

ان قانون المصلحة ، معبرا عنه في مرحلة التنافس بين الدولتين الاستعماريتين فرنسا وبريطانيا ، هو الذي حدا بنابليون ان يدعو الى قيام الدولة اليهودية في فلسطين قبل قرن من ظهور الحركة الصهيونية ولكن نابليون نفسه بعد ان مني بالهزيمة في مصر خشي ان يقوم البريطانيون بتنفيذ فكرته في الاستفادة من اليهود واستخدامهم ضده . فقام انسجاما مع قانون المصلحة ايضا ، بدعوة الطوائف اليهودية في البلاد التي كان مسيطرا عليها لعقد المجلس القضائي اليهودي الاعلى (السانهدرين) ليصدر فتوى تاريخية تنص على ان اليهود لايعترفون بانهم امة مستقلة بل ينتمون الى بلادهم ويخلصون لها دون تحفظ وان اليهودية هي دينهم فقط .

ورغم انشغال بريطانيا في حروبها الدامية مع نابليون الا ان قانون المصلحة كان يشدها دائما نحو فلسطين خاصة ، والشرق الاوسط عامة ، فهذه المنطقة تشكل عقدة المواصلات البرية والبحرية التي تربط بريطانيا باطراف امبراطوريتها المترامية . وكانت السيطرة على مصر تشكل طموحا يحقق لبريطانيا ضمان مصالحها الحيوية . فجردت لذلك حملة فريزر التي هزمها محمد علي عام ١٨٠٧ . لقد اكد انتصار محمدعلي، على الحملة البريطانية جدارته في حكم مصر مما جعله يتخلص بسرعة من منافسيه المماليك ويبدأ في تنفيذ طموحاته في توحيد مصر مع المناطق التي تحيط بها .

كان محمد علي يعتمد على الفرنسيين اعداء بريطانيا الالداء في تنظيم جيشه وبحريته . وبدأت مصالح بريطانيا ومستقبلها الاستعماري في خطر نتيجة الانتصارات التي حققتها جيوش محمد علي . فقد استطاع ان يفتح السودان والجزيرة العربية ، ثم انتقل شمالا ليحتل سوريا متوسعا على حساب السلطنة العثمانية .

وتحسست القوى الاستعمارية جميعها الخطر بما فيها فرنسا حليفة محمد علي فالوحدة بين مصر وسورية والجزيرة العربية يعني ميلاد دولة قوية تشكل سدا منيعا امام اطماع الدول الاستعمارية ، وتشكل عائقا امام طموحات هذه الدول في استغلال شعوب وخيرات مستعمراتها بصورة فاعلة . ولهذا وانسجاما مع قانون المصلحة ، وقفت جميع الدول الاستعمارية المتنافسة فيما بينها ضد الخطوات الوحدوية التي بداها محمد علي وخليفته ابراهيم باشا . وفرضوا عليه في معاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، ان ينسحب من سورية ومن كل المناطق التي احتلها ضامنين حق حكم مصر له ولسلالته من بعده .

مما تقدم نرى كيف تتصرف الدول الامبريالية محكومة دائما بقانون المصلحة . وليس ما يعبر عنه احيانا بالمصالح المشتركة بين الدول الامبريالية سوى خداع لما تسعى كل دولة لتحقيقه من مصالح ذاتية . ان الدول الامبريالية تتفق لحماية مصالحها في استغلال الشعوب . ولكن جوهر هذه المصالح المشتركة هي المصلحة الذاتية لكل دولة امبريالية . وهذه المصلحة تفرضها موازين القوى الانية . فالتنافس والصراع هما اساس العلاقات بين الدول الامبريالية وليس الاتفاق والوفاق .

ثالثا ــ قانون السيطرة :

ان تطبيق قانون المصلحة الامبريالي . اي تحقيق الاستغلال كهدف يتطلب من الدول الامبريالية ان تفرض سيطرتها على المناطق التي تطمع في استغلالها ، وهذا ما يحققه قانون السيطرة . ان علاقة التناسب الطردي بين قانوني المصلحة والسيطرة تتطلب المزيد من السيطرة لتحقيق المزيد من المصلحة . ولتحقيق المصلحة الشاملة فان الدول الامبريالية تحكم سيطرتها الاقتصادية والسياسية والثقافية على البلاد المستعمرة

بحيث تحقق نهب الثروات واستغلال الايدي العاملة الرخيصة والاسواق الواسعة . كما انها تفرض مؤسسات حكومية تابعة تحقق نشر الثقافة والفكر المتلائم مع اهداف الامبريالية والذي يحقق لها المزيد من السيطرة والاستغلال .

وتتخذ العلاقة بين الدول الامبريالية والبلدان التي تستغلها اشكالا تختلف باختلاف طبيعة الشكل الامبريالي وما يخدم المصلحة الامبريالية.

١ ــ الامبريالية الاستيطانية :

وهو الشكل الذي تحقق فيه الامبريالية سيطرتها على امبراطورية عالمية . كما فعلت انجلترا وفرنسا واسبانيا والبرتغال . حيث كانت المستعمرات تلحق بالبلدان المستعمرة الحاقا وتخضع لقوانينها . وخاصة مستعمرات العالم الجديد الذي تم استيطانه من قبل العناصر الاوروبية منذ مطلع القرن السادس عشر .

٢ ــ الامبريالية العسكرية :

وتعتمد الامبريالية في هذه الحالة على جيشها من أجل فرض السيطرة. مما يفرض عليها احتلال البلدان المستعمرة وفرض حكمها العسكري عليها بصورة سافرة . وتنصب الامبريالية لحكم مثل هذه البلدان « دمى تحكم شكلا » بينما يكون الحاكم العسكري المستعمر هو الحاكم الفعلي للبلاد .

٣ ــ الامبريالية المهيمنة :

وفي هذه الحالة لا تعتمد الامبريالية على جيشها لحكم البلدان المستعمرة وانما تعتمد على الجيوش المحلية للانظمة العسكرية لتلك البلدان بعد ان تحقق تبعيتها الكاملة للقرار الامبريالي . وقد تحتاج الامبريالية لتحقيق هيمنتها لبعض القواعد العسكرية التي تستاجرها من عملائها

الحكام لتكون قادرة على حمايتهم من أية انتفاضة جماهيرية أو محاولة ثوريــة .

ولتتمكن من تبديلهم من أجل امتصاص نقمة الجماهير . كما يلاحظ في مسلسل الانقلابات العسكرية المتلاحقة في كثير من دول العالم الثالث .

بدأت سيطرة الامبريالية تتقلص ومصالحها تتهدد نتيجــة ثــورة المستوطنات التي ادت الى استقلال ولايات أمريكا الشمالية والجنوبية عن الامبريالية البريطانية والاسبانية والبرتغالية والفرنسية .

ولقد كان الخطر الذي اثاره طموح محمد علي في توحيد مصر وسوريا والجزيرة العربية هو الذي دفع بريطانيا الى التفكير في اقامة حاجزبشري قوي لا ينصهر في المنطقة ويمنع توحيدها .

لقد اتجهت افكار السلطات البريطانية نحو اليهود لتحقيق هــذه الغاية . وظن الاستعماريون الانجليز انهم قادرون على ان يبعثوا روح صهيون بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . مقلدين بذلك نابليون الذي سبقهم في محاولة خلق الصهيونية بحوالي نصف قرن .

وتبنى اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا تنفيذ الفكرة . ولكنه فوجىء بمعارضة اليهود انفسهم لها . لقد رفضــوا المنطق البريطاني الداعي الى نقلهم من أوروبا حيث ينعمون بالاستقرار والازدهار والمدنية الى قطعة قاحلة لا تملك من وسائل المدنية شيئا وتخضع فوق ذلك للحكم العثماني المتخلف .

ازدادت مخاوف بريطانيا عندما اصدر الخديوي محمد سعيد عــام ١٨٥٤ مرسوما منح فيه صديقه فرديناند ديلسبس ، نائب قنصل فرنسا في الاسكندرية ، ترخيصا بانشاء شركة تعمل على ربط البحر الاحمر بالبحر المتوسط بطريق مائي . هاجت بريطانيا وماجت استنكارا لهذا المشروع الذي يهــدد مصالحها وقامت بابلاغ حكومات القسطنطينيــة

وباريس والقاهرة أنها ستقاوم المشروع بكل الوسائل . وقد وصل بريطانيا الحد الى التفكير بانشاء قناة تصل ما بين حيفا والعقبة مرورا بمرج بن عامر ومنطقة الغور والبحر الميت ووادي عربة . ولحماية هذا المشروع فكرت بريطانيا ايضا بانشاء دولة تحكمها قبائل الدروز التي وقفت الى جانبها ضد محمد علي .

لم يمض وقت طويل على حفر قناة السويس حتى استطاع دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا ان يجعل منها شريكا اساسيا في القناة . فقد تمكن عام ١٨٧٥ من شراء أسهم قناة السويس التي عرضها الخديوي اسماعيل للبيع بسبب ضائقته المالية . وعادت بذلك فكرة انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين لحماية هذه القناة . وكلف دزرائيلي وزير خارجيته بمتابعة الموضوع مع السلطات التركية .

ولقد كان رفض تركيا لهذا المشروع قاطعا مما دفع اللوردشافتسبري أن يعبر عن تخوفاته عام ١٨٧٦ قائلا (انها ضربة لانجلترا اذا استولت اي من الدول التي تنافسها على سوريا . فامبراطوريتها تمتد من كندا في الغرب الى كلكتا واستراليا في الجنوب الشرقي تقطع الى قسمين . وعلى انجلترا ان تصون سوريا نفسها . الا تستدعي السياسة انجلترا الى تنمية قومية اليهود ومساعدتهم . ان انجلترا دولة تجارية بحرية عظمى . ويجب أن ينسب اليها الفضل في استيطاناليهود في فلسطين(١).

ولكن تخوفات اللورد شافتسبري زالت مرحليا عندما احتلتبريطانيا مصر عام ١٨٨٢ . وخففت بذلك الاصوات التي كانت تنادي باقامة دولة يهودية في فلسطين . فقد ضمنت بريطانيا سيطرتها على قناة السويس وطريق الهند بصورة مباشرة .

مما تقدم نستطيع فهم الدوافع الاستعمارية لخلق الحركةالصهيونية ولزرع كيان غريب في قلب المنطقة العربية يربط مصيرها بالاستعمار ، ويلعب دور الشرطي لحماية مصالحه . ولقد عبر تقرير لجنة الاستعمار

المسمى بتقرير « كامبل بنرمان » عام ١٩٠٨ عن الدور الذي لعبه واسمو السياسة الاستراتيجية في الدول العربية في خلق كيان صهيوني في فلسطين لرد الخطر المستقبلي الذي تحمله امكانية وحدة العالم العربي وتحرره تقدمه . لقد جاء في التقرير مايلي :

« ان الخطر على كيان الامبراطوريات الاستعمارية في الدرجة الاولى في هذه المنطقة وذلك في تحررها وفي تثقيف شعبها وفي تطويرها وتوحيد اتجاهات سكانها وفي تجميعها واتحادها حول عقيدة واحدة وهدف واحد. فعلى كل الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار وضع هذه المنطقة المجزأ المتأخر . وعلى ابقاء شعبها على ما هو عليه من التفكك والجهل والتأخر » .

٤ — قانون التوتر الدائم :

ولكن القوى الاستعمارية والامبريالية وهي تحاول تطبيق قانون المصلحة والسيطرة على المنطقة العربية كانت تدرك جيدا عمق الروابط التاريخية والجغرافية والحضارية التي تفرض وحدة هذه الامة شعبا ووطنا وكانت تدرك أن التجزئة في هذه المنطقة هي الاستثناء اما الوحدة فهي القاعدة . وان كل العملاء التابعين وكل العروش المصطنعة ستنهار أمام نضال الامة العربية الوحدوي المنسجم مع منطق التاريخ . ولهذا كان من الضروري تطبيق القانون الخاص بهذه المنطقة . والذي يفترض زرع الجسم الغريب الذي يجعلها دائما في حالة توتر دائم . ويجعل طاقاتها مستنزفة بكرس الخلافات الدائمة بين حكامها .

من الطبيعي ان قانون التوتر الدائم لايتحقق بزرع أي جسم غريب ، هنالك مواصفات ضرورية لا بد من ضمانها للوصول بالقانون الى ذروة فعاليته ، فالجسم الغريب يجب أن يمتلك المواصفات التالية :

١ — الشعور بالنقاء والتفوق العرقي ليظل الجسم متماسكا يميز نفسه عنصريا عن الوسط المحيط . وغير قابل للاندماج بالوسط تحت كل الظروف .

٢ — الارتباط بالارض والعمل على بناء المجتمع العنصري . فالقوات والقواعد العسكرية لا تحمل مواصفات المجتمع العنصري لان طموحات افرادها تكمن في العودة الى الوطن الام . اما المجتمع العنصري فانه ينتمي بحيث يؤكد الانتماء للارض وتنمو فيه علاقات اجتماعية غير عادية ولكنها تشكل مجتمع الثكنة .

٣ — الامكانيات العسكرية الخارقة التي تضمن قدرته على الدفاع عن المصالح الامبريالية التي يزرع من اجل حمايتها . وتؤهله ليكون اليد الضاربة القادرة على استنزاف طاقات الوسيط المحيد مكرسة بذلك حالة التجزئة فيه وتخلفه وتبعيته .

بهذه المواصفات زرعت بريطانيا اجساما غريبة في المناطق الحساسة في مستعمراتها وفي الطرق اليها . وابتدعت فكرة انشاء شركات الاستيطان التي تمنحها الامبراطورية البريطانية براءة الاستيطان لاقليات عنصرية . فلقد منحت بريطانيا براءة الاستيطان لشركة شمال بورنو البريطانية عام ١٨٨١ . ومنحت ايضا براءة ثالثة لشركة شرق افريقيا الملكية عام ١٨٨٨، كما حصل سيسل رودس على براءة لشركته المعروفة باسم شركة جنوب افريقيا البريطانية عام ١٨٨٩ .

ولكن محاولات بريطانيا لخلق الشركة الصهيونية لاستيطان فلسطين قبل عام ١٨٨٢ قد باءت بالفشل بسبب عدم تجاوب اليهود انفسهم لهذه المحاولات . وكانت كل الاصوات الداعية لخلق الصهيونية قبل عام ١٨٨٢ هي اصوات استعمارية من غير اليهود . وهم ما يطلق عليهم اسم الصهاينة الاغيار وقد توقف اصوات هؤلاء في بريطانيا عندما تمكنت عام ١٨٨٢ من فرض سيطرتها على مصر فامنت بذلك حمايتها لقناة السويس وطرق تجارتها البرية والبحرية .

واذا كان عام ١٨٨٢ قد وضع حدا لمحاولات الاستعمار لخلق الصهيونية . فان هذا العام نفسه يعتبر التاريخ الفعلي لميلاد الحركة الصهيونية على صعيد عقائدي ومنظم . فقد تنامت حركة (احياء

صهيون) التي انتشرت بين يهود روسيا واوربا الشرقية بعد المذابح التي دبرت ضد اليهود في روسيا بسبب اغتيال القيصر في اذار ١٨٨١ . وقد استمرت هذه المذابح حتى عام ١٨٨٣ . وفي عام ١٨٨٢ ولدت المسألة اليهودية في روسيا وذلك نتيجة صدور قوانين مايو التي اصدرتها السياسة العنصرية للسلطات القيصرية الرجعية والتي فرضت على اليهود قيودا حصرت اقامتهم وحرمتهم حق امتلاك العقارات في المدن .

لقد كانت هذه القيود تقف حائلا دون اندماج قطاعات واسعة من اليهود في المجتمع الروسي مما شجع الهجرة من روسيا الى اوروبا الغربية والولايات المتحدة . وقد دعت حركة (احباء صهيون) في تلك المرحلة الى ان الحل العملي للمسألة اليهودية يكمن في الهجرة الى فلسطين ، والاستيطان فيها عن طريق انشاء جمعيات للاستعمار . وقد تركزت اهداف حركة (احباء صهيون) في تحقيق استعمار فلسطين على يد اليهود . ثم في نشر الفكرة الصهيونية بين كافة يهود العالم .

ولتحقيق ذلك ، دعت الى بعث اللغة العبرية واعتبارها اللغة القومية لليهود . وقد وجدت هذه الحركة دعما ماديا من البارون اليهودي الفرنسي روتشليد . الا انها لم تستطع ان تتحول الى حركة جماهيرية مؤثرة بسبب تفضيل اليهود المضطهدين حل مشكلتهم بالهجرة الى امريكا واوروبا لا الى فلسطين .

وبظهور هرتزل على الساحة وعقده المؤتمر الصهيوني الاول في بازل عام ١٨٩٧ تحولت الصهيونية الى حركة سياسية منظمة تعي طبيعة السياسة الدولية ومكامن الضغوط التي تتحكم بعملية تجميع اليهود في بقعة محددة تكون مع الزمن الارض التي تقوم عليها الدولة القومية الصهيونية . لقد ادرك هيرتزل منذ البداية ان ميكانيكية العمل لتكوين مجتمع استعماري استيطاني يتطلب الحصول على براءة من دولة استعمارية تتبنى مشروع الاستيطان . وهكذا وبعد ان فشلت الدول الاستعمارية وصهاينتها الاغيار في الحصول على صهاينة يهود لتحقيق

المشروع الاستعماري الاستيطاني في فلسطين ، نجد الامور تنعكس تماما فيبدأ الصهاينة اليهود وعلى رأسهم هيرتزل يبحثون عن صهاينة اغيار ليدعموا المشروع الصهيوني الاستعماري الاستيطاني . ولقد جاء التجاوب الاول بعد عام واحد من المؤتمر الصهيوني الاول . عندما التقى وفد صهيوني برئاسة هرتزل في القدس مع غليوم الثاني امبراطور المانيا الذي كان يزور الشرق ، وقد أكد غليوم للوفد بان (المساعي الصهيونية في فلسطين التي تحترم سيادة حليفته تركيا تستطيع ان تعتمد على رعايته) . وقد أوعز غليوم الى المستوطنين الالمان من جماعة هوفمان باقامة علاقات وثيقة مع الصهاينة لدعم المشروع الصهيوني في فلسطين .

من الطبيعي ان تكون الارض هي اول عنصر يجب تحديده لتنفيذ المشروع الاستيطاني . ولم يكن هيرتزل يرى أن فلسطين هي المكان الواحد الصالح لهذا المشروع . فبالرغم من محاولاته المستمرة لانتزاع براءة استعمار فلسطين من السلطات العثمانية ثم من الامبراطور غليوم الثاني ، ثم من بريطانيا ، الا انه لم يتورع عن قبول مشروع استيطان اوغندا بدلا من فلسطين . لقد كانت مصلحة بريطانيا ان توجه الاستعمار اليهودي الاستيطاني الى شرق افريقيا بدلا من فلسطين لسببين ، اولهما ان تسيطر على تلك المنطقة التي تتحكم بمنابع النيل من جهة وان تمنع المانيا من اقامة قاعدة لها في فلسطين تحت غطاء الصهيونية . فقد كانت المانيا تدعم بشكل سافر اقامة تلك القاعدة وقد اوعزت حكومة المانية لمصارفها ورجال المال فيها بفتح اعتمادات ضخمة لحساب المكاتب الصهيونية التي اصبحت برلين عاصمة سياسية ومالية لها . هذا ما دفع بريطانيا الى ان تفرض على المؤتمر الصهيوني السادس المنعقد في بازل عام ١٩٠٣ اقامة وطن يهودي في اوغندا . وبذلت بريطانيا كل ما في وسعها لتمنع قيام هذا الوطن اليهودي الموالي لالمانيا على تخوم قناة السويس . وبموت هيرتزل عام ١٩٠٤ وانعقاد المؤتمر الصهيوني السابع ١٩٠٥ تحدد بشكل حاسم أن فلسطين هي الارض التي عليها يجب ان يقوم المشروع الاستيطاني . لم يكن هذا التحديد نابعا من روح نصوص التوراة ، وانما من اسس

الجغرافيا السياسية والاقتصادية . لقد ادرك الصهاينة اهمية فلسطين لكل الدول الاستعمارية والامبريالية بسبب خصوصية موقعها المتميز اقتصاديا وسياسيا وعسكريا .

واستمرت الحركة الصهيونيةعلى الخط الذي اتبعه هيرتزل للحصول على براءة استيطان. ولكنها قرنت ذلك بخط الممارسة العملية الاستيطان. فقد تيقنت الحركة الصهيونية انه (عندما تصبح غالبية السكان في فلسطين يهودا . والجزء الاكبر من العمل التجاري والصناعي في يد اليهود .. وعندما تصبح الثقافة السائدة يهودية ، فان ، المشكلة الصهيونية سوف تحل ، لأن فلسطين ستصبح ارضا يهودية(١) .

ولكن حقيقة مرة واجهت المهاجرين الصهاينة الذين شجعوا للهجرة الى (ارض العسل واللبن) والتي هي (بلا شعب) يستغل خيراتها . هذه الحقيقة هي ان المهاجرين وجدوا امامهم شعبا عريقا يرتبط بارضه ويتمسك بحقوقه . وكانت ردة الفعل المبكرة تأخذ شكل منازعات دائمة بين المستوطنين الجدد والعرب الفلسطينيين الذين تضررت مصالحهم . لم تكن المواقف المبكرة من الاستيطان واعية لخطورة المشروع الصهيوني . ولم تتخذ طابعا سياسيا . لقد عمدت بعض المستعمرات الصهيونية الى تأمين حمايتها عبر استئجار حراسات عربية من القرى المحيطة وذلك بعد أن فشلت في تأمين حمايتها الذاتية . ولقد كان واضحا ذلك الشعور بانعدام الحماية الذاتية للمستوطنات في فلسطين لدرجة جعلتالمستوطنين يشجعون مشروع اوغندا عندما طرح عليهم لشعورهم ان الصهيونيةعاجزة عن حمايتهم في فلسطين .

لقد رافق ظهور الصهيونية العملية بروز اليقظة القومية العربية مما جعل ردود الفعل المناوئة تتخذ طابعا سياسيا . ولقد عبرت عن ذلك الصحف والمجلات العربية والفلسطينية في ذلك الحين . ولقد كان نجيب

(١) د. خيرية قاسمية . النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ٢٦ .

عزوري مؤسس عصبة الوطن العربي من ابرز من تنبأوا بحتمية الصراع المرير بين الحركة القومية العربية والحركة الصهيونية . فلقد جاء في كتاباته المبكرة ، عام ١٩٠٥ مايلي (تبرز في هذه الوقت ، وبشكل لم يثر الاهتمام سابقا ظاهرتان خطيرتان متعارضتان ، رغم تماثل طبيعتهما ، هما يقظة الامة العربية والجهود اليهودية لاعادة تأسيس مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع للغاية . انه يقدر لهاتين الحركتين أن تتصارعا باستمرار حتى تتغلب احداهما على الاخرى . ومصير العالم كله يعتمد على نتائج هذا الصراع بين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متناقضين)(١) .

ولقد وعى بعض المفكرين اليهود ايضا العلاقة التي تربط شعب فلسطين بالامة العربية فحذروا الحركة الصهيونية من التهور في اغفال حركة القومية العربية . ولقد عبر اسحق ابشتاين في المؤتمر الصهيوني السابع عام ١٩٠٥ عن آرائه التي نشرها فيما بعد والتي جاء فيها (ان الشعب الذي يعيش في هذه الارض له ايضا قلب وروح . وانه مرتبط بوطنه الأم بروابط قوية . ومن الصعب على افراد هذا الشعب التخلي عن قراه ومزارعه . وهذا الشعب يشكل جزءا من امة كبيرة تملك كل المنطقة التي تحيط بلدنا ، والتي تشمل سوريا والعراق والجزيرة العربية ومصر ، ويجب أن لا نثق بالرماد الذي يكسو الجمرة شرارة واحدة قد تعيد اشعال النار ، وتسبب حريقا يصعب اخماده) (٢) .

لكن الحركة الصهيونية لم تلتفت كثيرا الى خطر اليقظة القومية العربية وركزت نشاطها نحو الباب العالي المسيطر الحقيقي على الارض . ولكن موقف السلطان عبد الحميد الرافض للهجرة الجماعية ولاعطاء براءة استيطان في فلسطين للصهاينة ، دفعهم لمساعدة جمعية تركيا الفتاة التي اسقطت السلطان ووصلت الى السلطة بتعيين محمد رشاد سلطانا صوريا .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

اخذ الفكر الصهيوني يطرح نفسه بوضوح مساوما الحكام الجدد لتركيا على الدور الصهيوني لمناوءة اليقظة العربية مبينا ان مصلحة تركيا في المستقبل هي في ان تميل الى تدعيم وجود ثقافة يهودية تشكل شريانا مضادا للقومية العربية وبالرغم من الدعم المتواصل من السلطات التركية للهجرة اليهودية الا ان هــذه السلطات كانت متهيبة من تبني الفكرة الصهيونية باستيطان فلسطين وذلك خشية من الراي العام العربي .

ومع اندلاع الحرب العالمية الاولى بدات الحركة الصهيونية تواجه هجوما على مؤسـسـاتها من قبل جمال باشا وسكرتيره بهاء الدين . وكان الأخير يفهم مقصد الحركة الصهيونية ، فأعلن موقفه منها في بيان رسمي في ١٩١٥/١/٢٥ جاء فيه (ان الحكومة في مقاومتها اعمال تلك العناصر التي تسعى عن طريق التآمر لخلق دولة يهوديــة باسم الصهيونية في فلسطين ، لا تقصد ابداء اليهود الذين هم حلفاؤنا . والذين هم ابناء وطننا . الاوامر مقصود منها المنظمات الصهيونية والاعمال الصهيونية . نامل ان يبقى بقية يهود بلدنا الذين ليست لهم صلة بهذه العناصر الثورية الفاسدة في سلام كما في السابق)(١) .

ولكن امريكا تبنت حماية الصهاينة في فلسطين واستطاعت بنفوذهــا عزل بهاء الدين من موقعــه . واستقطاب جمال باشا ليكون صديقــا للحركة الصهيونية .

وكثرت الاتفاقيات والوعود خلال الحرب العالمية ، وان كان أبرزهــا ذلك الاتفاق بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية ، والمعروف بمعاهدة سايكس بيكو والقاضي بتقسيم التركة العثمانية بينهم . والذي تــم الكشف عنه بعد حدوث الثورة البلشفية . وكانت بريطانيا اكثر الدول نشاطا في اصدار الوعود المتناقضة مع بعضها البعض من جهة ، ومع

(١) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

اتفاقهما مع فرنسا من جهة اخرى . فلقد اعطى « مكماهون » وعدا لشريف مكة باستقلال الولايات العربية واتحادها في مملكة واحدة . واعطى بعد ذلك بلفور وعدا للصهاينة ، باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين . ولم تكن الوعود والاتفاقيات تعني كثيرا في تلك المرحلة . فسرعان ما كانت تتغير او تتناقض مع وعود أخرى . لقد سادت اللعبة الدبلوماسية روح العصر مما جعل كل الاطراف تنغمس في مؤامرات ومناورات لضمان مصالحها الاقتصادية والسياسية .

ولقد كانت الحركة الصهيونية تلعب على الحبال للحصول على وعد يحقق مصالحها واهدافها . وكان معظم التركيز يتجه نحو المانيا حليفة تركيا والتي كانت مركزا اساسيا للحركة الصهيونية ولكن الصهاينة كانوا قد ادركوا مسبقا ان براءة الاستيطان الصهيوني لفلسطين يجب ان تصدر عن دولة منتصرة في الحرب حتى تستطيع ان تفي بالتزاماتها .

ولذلك توجه وايزمن ليقيم في لندن ويتابع اتصالاته مع الساسة البريطانيين ولقد لعب وايزمن ورقة اليهود في العالم ودعمهم لبريطانيا وخاصة يهود روسيا وامريكا اللذين باستطاعتهم ان يدفعوا الولايات المتحدة للمشاركة في الحرب . ولقد كان انضمام العرب الى جانب الحلفاء وهزيمتهم لتركيا والمانيا في العقبة سببا دعا غليوم الثاني ان يضغط على حليفته تركيا لتبني المشروع الصهيوني ليكسب عطف يهود العالم . ولقد تنبه البريطانيون الى نوايا غليوم ، وادركوا موقعه القوي الناتج عن انتصاراته على الجبهة الروسية والذي ساعد في انفجار ثورة اكتوبر البلشفية ... ولذلك سارع بلفور وزير خارجية بريطانيا بارسال رسالته المشهورة الى روتشيلد والمعروفة بوعد بلفور في ٢ تشرين ثاني عام ١٩١٧ والتي تنص على مايلي :

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تاسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين . وستبذل احسن جهودها لتسهيل تحقيق هذا الهدف . على أن يفهم جليا انه لن يؤتى بعمل من شأنه ان يغير الحقوق

المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية المقيمة الان في فلسطين . اوالحقوق او المركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في اي من البلاد الاخرى » .

ولقد ظهرت الحركة الصهيونية واحدة موحدة ، وان كانت بلغت ادوارا مختلفة وتقوم باتصالات مع القوى المتناقضة لتحقيق مصالحها واهدافها الذاتية . فما ان صدر وعد بلفور حتى اسرع المركز الصهيوني في برلين الى مباركة الخطوة البريطانية .

كانت مصلحة بريطانيا المنسجمة مع المصلحة الصهيونية تقتضي ان تقع فلسطين تحت انتدابها وليس تحت انتداب دولي كما نصت معاهدة سايس بيكو . كما ان مصلحتها كانت تتطلب السيطرة على شمال العراق الغني بالنفط على ان تترك سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي . وتدخلت امريكا لتحل المشكلة ولتاخذ حصتها . فعرضت تشكيل لجنة تحقيق ثلاثية تشترك فيها بريطانيا وفرنسا وامريكا لاستطلاع راي سكان الاقاليم التي كانت تحت السيطرة العثمانية والبت في مستقبلهم ،ولكن بريطانيا وفرنسا لم تتجاوبا مع العرض الامريكي . فمعاهدة سايس بيكو تتيح لهما وحدهما اقتسام الغنائم دون شريك . ولما كانت الولايات المتحدة قد شاركت بدور حاسم في انتصار الحلفاء على المانيا فانها ترى ان من حقها اقتسام الغنائم وكان النفط غايتها الاساسية في المشاركة في السيطرة على منطقة الشرق الاوسط ، وهذا مادفعها الى ارسال لجنة كنغ كراين الامريكية لتقصي الحقائق في حزيران ١٩١٩ . ولكن تشبث بريطانيا في الاستئثار بامتيازات النفط ومنع الشركات الامريكية من التنقيب في فلسطين وغيرها . ادى الى الخلاف بين الولايات المتحدة وبريطانيا ولهذا جاء تقرير لجنة كنغ كراين متناقضا مع المصلحة البريطانية والصهيونية ومنسجما مع قرارات المؤتمر السوري الاول - فلقد جاء في تقرير هذه اللجنة « ان المؤتمر السوري اعرب عن اماني الشعب العربي في المنطقة واوصت اللجنة (بصيانة سوريا تلبية لرغبة الاكثرية العظمى من الشعب السوري) وقد حذرت اللجنة من تنفيذ البرنامج الصهيوني واقترحت

تقليصه بحيث تتخلى الصهيونية عن فكرة الدولة اليهودية لتظل فلسطين جزءا من الدولة العربية السورية الموحدة » (١) .

لم يكن تقرير كينغ كراين تعبيرا عن السياسة الحقيقية لامريكا تجاه منطقة الشرق الاوسط انما كان تعبيرا عن سياسة انتداب بريطانيا لاعطاء الولايات المتحدة حصتها للسيطرة على منابع النفط ورغم اتفاق بريطانيا وفرنسا في نيسان ١٩٢٠ في « مؤتمر سان ريمو » على الاستئثار بالسيطرة وتوزيع الغنائم بينهما الا ان الانذار الاميركي نجح في تحقيق مشاركة الولايات المتحدة حصتها للسيطرة على منابع النفط ورغم اتفاق بريطانيا ارست الخط النهائي للامتيازات النفطية في الشرق الاوسط وليضاعف ارتباط المصالح الامريكية في المنطقة مع انشاء شركة ارامكو التي سيطرت على اغنى حقول النفط في العالم .

ولم تضيع بريطانيا الاستعمارية كثيرا من وقتها لتحقيق احلام « بالمرستون » ودزرائيل وشافسبري فقد عينت الصهيوني هوبرت صموئيل مندوبا ساميا على فلسطين وفي نفس الوقت قامت بفصل شرق الاردن عن فلسطين بانشاء امارة شرق الاردن . وقد كانت هذه الخطوة مصدر ازعاج للحركة الصهيونية التي كانت ترى ان دولتها الموعودة لابد ان تشمل شرق الاردن ولكن مصلحة بريطانيا كانت تقتضي عكس ذلك ثم ان بريطانيا كانت ترى ان شرق الاردن المكان الطبيعي الوحيد القادر على استيعاب السكان الفلسطينيين المطرودين من فلسطين لتحقيق التهويد الشامل لفلسطين .

لقد بدا التصدي للمؤامرة فلسطينيا منذ بدايتها ولم يكن النهوض العربي الى درجة انكشاف اساسية الخطر الصهيوني كرأس رمح مسموم للامبريالية . لقد تشتت اتجاه نضال الحركة القومية العربية الى حركات وطنية محلية كل تجابه عددا رئيسيا خاصا . فهو الاستعمار

(١) ستون عاما على الحركة القومية ، د. اميل توما ، ص ٢٠ .

الفرنسي في سوريا والمغرب العربي . وهو الاستعمار البريطاني في العراق وهو الحركة الصهيونية في فلسطين . ولقد اتسمت المرحلة الاولى للنضال الفلسطيني بمهادنة الاستعمار البريطاني والتوجه كليا ضد الحركة الصهيونية باعتبارها العدو الحقيقي صاحب الاطماع في ارض فلسطين . وكانت القيادات الفلسطينية التقليدية تراهن على ان بريطانيا هي التي تملك حل القضية . وهي الصديق الذي يجب الاعتماد عليه لتحقيق طموحات الشعب الفلسطيني في الاستقلال . وكانت بريطانيا تلعب دور الحكم المنحاز لمصالح الحركة الصهيونية ، مما جعل التحركات الجماهيرية الفلسطينية تتجاوز القيادات التقليدية وتحدد خط المرحلة الثانية للنضال باعتبار ان الاستعمار البريطاني هو علة الصهيونية وان الصهيونية ليست سوى فرع تابع للاستعمار وانه يجب التوجه لمحاربة الصهيونية والانتداب البريطاني معا لتحقيق الاستقلال واقامة الدولة الفلسطينية . وقامت القيادات باغراق ساحة فلسطين بالاحزاب ذات البرامج المتشابهة في حين كانت حركة الشيخ عز الدين القسام التعبير الصادق عن الخط الجماهيري المسلح ، مما جعل بريطانيا تعمد الى سحق هذه الحركة بقوة وهي في مهدها . ولكن اثر هذه الحركة المعبرة عن الخط الجماهيري طغى على فلسطين بشكل شامل وكان « الصاعق الذي فجر الثورة العربية الكبرى في فلسطين والتي استمرت من عام ١٩٣٦ وحتى عام ١٩٣٩ والتي اشتملت على أطول اضراب في التاريخ .

لقد كان انصياغ القيادات الفلسطينية التقليدية لنداءات الحكام العرب بانهاء الاحزاب والتوقف عن اعمال العنف والخلود الى السكينة والاعتماد على حسن نوايا « صديقتنا » الحكومة البريطانية تأكيدا على ان هذه القيادات كانت تابعة وخاضعة ومواجهة مما افقدها قدرتها الطليعية على قيادة الثورة والشعب نحو الحرية والاستقلال .

وكانت طبول الحرب العالمية الثانية ترسخ نهاية الثورة الفلسطينية وترسم بداية مرحلة جديدة اتسمت بغياب وتغييب الشخصية الفلسطينية المستقلة .

ومع اندلاع الحرب حاولت بريطانيا ارضاء العرب عبر التراجع عن مشروع تقسيم فلسطين والحد من الهجرة اليهودية اليها واحدثت الكتاب الابيض الثالث الذي حاربه الصهاينة واتجهوا بالرهان على الولايات المتحدة ، ومع استمرار الحرب كان واضحا أن الولايات المتحدة تقفز الى مرتبة قيادة الامبريالية العالمية مما حدا بالحركة الصهيونية الى عقد مؤتمر بلتيمور عام ١٩٤٢ والذي نقل مركز الصهيونية الى امريكا ووضع برنامجا متكاملا يعتمد على دعم الولايات المتحدة لتحقيق اعلان الدول الكبرى فورا قرارها القاضي بجعل فلسطين دولة اسرائيل الحرة الديمقراطية لتمكين الوكالة اليهودية من تامين عمليات الهجرة اليهودية الى فلسطين على نطاق واسع مما يقتضي أن تفرض الولايات المتحدة على بريطانيا الغاء كتابها الابيض والضغط عليها لانهاء الانتداب واحالة القضية الفلسطينية الى هيئة الامم التي كانت لعبة في يد الولايات المتحدة ، فنتيج عنها اعلان قيام دولة اسرائيل .

مما تقدم تتضح طبيعة المؤامرة التي استهدفت فلسطين والشعب الفلسطيني والامة العربية والتي كانت لاتزال محكومة بقوانين الصراع الامبريالي الاستعماري الصهيوني لتحقيق استغلال المنطقة عبر تحقيق قوانين التفرقة والمصلحة والسيطرة والتوتر الدائم والتي جعلت من انشاء دولة اسرائيل ضرورة حتمية للامبريالية .

فاسرائيل هي الحارس الامين لمصالح الامبريالية في المنطقة واسرائيل هي طريق الامبريالية لتكريس تجزئة الوطن العربي والأمة العربية .

واسرائيل هي طريق الامبريالية لتكريس تخلف الأمة العربية.
واسرائيل هي الطريق لتكريس تبعية الحكام للامبريالية .

فكيف يمكن ان تتم التسوية في هذه المنطقة ؟
وهل التسوية بالمعنى الحرفي ممكنة تاريخيا ؟
هذا ما يتطلب اجابة واضحة وصريحة .

التسوية :

ما الذي نعنيه بالتسوية ؟

من الطبيعي ان ترى الامبريالية والصهيونية مفهوم التسوية بشكل مغاير عما يمكن ان تراه عليه جماهير الامة العربية وفي طليعتها الشعب الفلسطيني . اما التسوية في نظر الامبرياليين والصهاينة فانها تعني :

١ ـ الاقرار بوجود الكيان الصهيوني عربيا . والاعتراف بهذا الوجود. وهذا يعني اضفاء الشرعية العربية على العدوان الذي استهدف الامة العربية في اقدس واهم مواقعها .

٢ ـ الإقرار بتصفية القضية الفلسطينية بموافقة عربية ناتجة عن غياب الحد الادنى من الشعور القومي بالانتماء وبالكرامة .

٣ ـ تكريس تجزئة الوطن العربي بل واحداث المزيد من التجزئة على اسس طائفية عنصرية خاصة في لبنان وسوريا بحيث تتحول المنطقة الى مجموعة من دويلات الطوائف المتصارعة فيما بينها والتي ستصبح لعبة طيعة في يد دولة العدوان الصهيوني تفرقها بالمشاكل ثم في حلها لتكريس تبعيتها .

٤ ـ تكريس تبعية حكام المنطقة جميعهم لدولة الكيان الصهيوني .

٥ ـ تكريس التخلف العلمي والثقافي والانتاجي لتحطيم الدور الحضاري للامة العربية ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

٦ ـ فرض الهيمنة المطلقة للامبريالية والصهيونية على المنطقة العربية .

بهذا المفهوم الامبريالي الصهيوني للتسوية فان من الواضح ان التسوية = التصفية للقضية الفلسطينية .

اما التسوية في نظر جماهير امتنا العربية فانها تعني ببساطة الحل الدائم في المنطقة . اي انها تعني الحل الشامل والعادل والدائم وهذا يعني :

١ ـ اسقاط قانون التوتر الدائم الذي على اساسه تم انشاء الكيان الصهيوني .

٢ ـ اسقاط قانون التفوق العنصري الذي يفرق بين البشر ويصنفهم على اساس التفوق والتدني .

٣ ـ اسقاط فكرة الفصل العنصري والتمييز العنصري واقرار حق المواطنين في العيش بسلام دون تمييز بسبب اللون او الجنس او الدين .

٤ ـ تصفية الصهيونية باعتبارها شكلا من اشكال العنصرية .

٥ ـ انهاء مجتمع الثكنة وبناء المجتمع الديموقراطي .

٦ ـ بناء الدولة الديموقراطية في فلسطين .

بهذا المفهوم للتسوية كحل عادل وشامل ودائم فان التسوية :

تحرير فلسطين تحريرا كاملا
واقامة الدولة الديمقراطية المستقلة
وبناء المجتمع الفلسطيني التقدمي
على طريق بناء المجتمع العربي التقدمي الموحد

وبهذا المفهوم تكــون
فلسطين طريق وحدة الامة العربية
فلسطين طريق استقلال الامة العربية
فلسطين طريق تقدم الامة العربية ٠

وبهذا المفهوم تكــون
الثورة طريقنا الى الحرية
وانها لثورة حتى النصر ،

خصوصية حرب تحريرنا القومية

يوسف الأشقر

موضوع هذا الحديث القصير هو عن خصوصية حرب تحريرنا القومية . وقد اعتمدنا التسلسل التالي :

١ ـ خصوصية الحرب علينا
٢ ـ خصوصية المرحلة الحربية الراهنة
٣ ـ خصوصية عامل الزمن
٤ ـ خصوصية طبيعة الرد أو الملمح الاساسي لفلسفة حرب تحريرنا القومية .
٥ ـ ترجمة الرد في ضوء أوضاعنا القائمة .
٦ ـ وأخيرا : الخلاصة والاستنتاج حول التمييز بين الحالة والاتجاه .

١ ـ خصوصية الحرب علينا :

أ ـ هل هي مؤامرة ؟

في رأينا أن ما يجري في بلادنا وفي العالم بصدد بلادنا هو أعلى مستويات الحرب . ان كلمة مؤامرة لا تفي بالغرض ، الا اذا شئنا ، استبدادا ، أن نحمل كلمة مؤامرة فوق ما تعني لو اذا شئنا ان نعني اقل مما هو حاصل .

بل ان اختصار حربنا بكلمة « مؤامرة » مع ما بني على ذلك من استنتاجات واجتهادات ، أساء بشكل بالغ ، الى عامل الوعي في شعبنا ، اذ كان له دور تضليلي في ترسيخ الاعتقاد بتعددية الاطراف المتآمرة الى ما لا نهاية ، وتحويل الانظار عن مصدر الحرب الاساسي الواحد . قد يجوز اطلاق كلمة مؤامرة بالمعنى التاريخي والحضاري العام ، وهذا شيء آخر كليا .

ب ـ هل هي حرب تقليدية ؟

نميز بين نوعين من الحروب التقليدية :

- الحروب التقليدية في التاريخ مواصفاتها معروفة بالرغم من خصوصيات بعضها .
- ثم الحرب الامبريالية المعاصرة .

الحرب الامبريالية المعاصرة تختلف عن الاولى بطبيعتها وحجمها وعمق اجتياحاتها وسرعتها . ولكن بالرغم من هذا الفارق النوعي اعتبرناها ، بالنسبة الينا ، تقليدية بمعنى انها لا تتميز عندنا بفارق نوعي عنها في العالم . واذا كانت الحرب الامبريالية قد تميزت عندنا بالخدمات المتميزة التي قدمتها وتقدمها لاسرائيل ، مصدر خصوصية الحرب علينا ، فذلك لا يدخلها في جوهر هذه الخصوصية في رأينا .

نخلص الى القول ان الحرب علينا هي ، في جانب منها ، تقليدية ، وهي في جانبها الاهم ، خصوصية فريدة .

ج ـ الحرب الفريدة

الجانب الفريد في حربنا ، الجانب الأهم والاخطر ، هو حرب اليهود علينا . لم يشهد تاريخ الانسانية ، قديمه وحديثه ، حربا أشد وضوحا وبساطة ومباشرة في طبيعتها وأهدافها ، واشد غموضا وتعقيدا وتنوعا والتواء في صيغها وأساليبها ووسائلها .

تستهدفنا ليس فقط في وجودنا الافقي كجيل معاصر قائم من اجيال مجتمعنا ، بل كمجتمع في كليته ، في سياق اجياله وتاريخية وجوده . فمجتمعنا ، عموديا ، يجب ان يغيب ومعه ستة آلاف سنة من وجوده في قلب التاريخ وكمصدر لأهم النقلات الثقافية النوعية ولأول عهد حضاري ، وكمصدر ومعين متواصل ومتجدد لاهم تراث مناقبي انساني من سرجون وحمورابي وزينون الى المسيح ومحمد . ولهذا الغرض تشكل اسرائيل واليهود في العالم فرق حرب تطارد ستة آلاف سنة من تراثنا وتقاليدنا وكل مسيرتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية .

ومجتمعنا ، افقيا ، يجب ان يتفكك وينهار ويتبدد ، فيفقد هويته ومؤسساته وايمانه بنفسه كشعب ، فتخرب مرافق حياته وتبدأ ارض بلاده ، على سعتها ، تضيق بالانسان واسباب عيشه ، ليجد نفسه أخيرا أمام خيارين : اما ان يتنازل عن حقوقه المدنية والسياسية ويرضى بالعيش ضمن الحجم والعدد والمستوى والحدود المسموح بها ، واما أن يهاجر لغير رجعة . ولهذا الغرض تشن اسرائيل حربها الاجتثاثية التدميرية على كل خريطة حياتنا القائمة على ارض وطننا وفي العالم .

هل من ضرورة لتقديم شواهد على ذلك لنسترجع بالتفصيل الحروب التي يشنها المؤرخون اليهود على كل حفرية اثرية تقوم عندنا وعلى كل

لوحة ومخطوطة واثر ، من نينوى وماري وبابل الى راس شمرا وايبلا ، الى البحر الميت وجبيل وصور ؟ او لنسترجع كامل قصة آثارنا منذ مطلع هذا القرن ، على الاقل ، وما اصاب هذه الكنوز من نهب وتدمير ، او من تحريف وتزوير ، أو من استنطاق تشويهي ؛ والذي يراقب الحملات اليهودية على اكتشافات ايبلا ومضمون هذه الحملات يعرف ابعاد الحرب الاسرائيلية وشراستها ويتأكد من حقيقة ما نعني بقولنا انهم يطاردون ستة آلاف سنة من حياة مجتمعنا بنفس الشراسة ولنفس الغرض التدميري الاجتثائي في اجتياحهم خريطة حياتنا المعاصرة .

في هذا البعد الاجتثائي التدميري لمجتمعنا ، عموديا وافقيا ، ترتسم ملامح خصوصية الحرب علينا ، في طبيعتها وفي اهدافها .

٢ ـ في خصوصية المرحلة الحربية الراهنة :

اذا كان تقويض مجتمعنا هو غرض الحرب الاسرائيلية بشكل عام ، فالمرحلة الحربية الراهنة تكشف بامتياز عن هذا الغرض . الم تقرر اسرائيل ، بعد حرب حزيران اولا ، ثم بعد حرب تشرين تأكيدا ، ان تتعامل ، حصرا ، مع بنية مجتمعنا ، تعاملا حربيا مباشرا ، دون المرور الا مداورة ومجانبة ، بالتعامل الحربي مع الانظمة والجيوش وسائر القوى المسلحة ؟

التعامل الحربي المباشر مع بنية مجتمعنا : هذا هو العنوان الكبير للمرحلة الحربية الراهنة . واذا اخذنا مسلسل هذه المرحلة ، وجدنا ان اسرائيل تمكنت مثلا من ايصالنا الى هذه الحالة في لبنان بفضل تمكنها من التعامل الحربي المباشر مع ثغراتنا الاجتماعية والثقافية واوضاعنا الداخلية العامة اكثر مما كان بفضل تدخل المدافع والاساطيل ، الجوية والبحرية . وفي رأينا انها ستستمر على خطتها هذه : مناوشة الجيوش والانظمة والمنظمات سياسيا وعسكريا ، كتحرك تكتيكي ،

والاستمرار في ضرب العمق الاجتماعي ، المادي والمعنوي ، السياسي ـ الاقتصادي والثقافي ـ النفسي ، كفرض استراتيجي حتى لو قررت اسرائيل ، قريبا ، حربا مباشرة ، فان اهدافها الاساسية ، في رأينا ، هي ، بالاضافة الى احتلال الارض ، حسم اوضاع في قلب مجتمعنا لمصلحتها ، سواء اوضاع خاصة بكيان او اكثر ، او اوضاع تتناول علاقات بعض الكيانات ببعضها الآخر . فيكون هدف حسم الأوضاع المتعلقة بالمجتمع وبنيته وانماط علاقاته متقدما في الاهمية . اكثر من ذلك : حتى المناطق الستراتيجية في عمق وطننا ، تعتمد اسرائيل خطة دخولها اليها وتحكمها بها من خلال تفجير وضعها الداخلي . مثال على ذلك : الشريط الساحلي من الناقورة الى لواء الاسكندرون هو مفصل استراتيجي حيوي في حياة سورية ، وهو رئتها وبوابتها . وقد كان احتلاله ، تاريخيا ، هدف الفاتحين والدول الطامعة في اضعاف سورية . ولا شك ان هذا الشريط تركز عليه اسرائيل في مرحلتها الحربية الراهنة ، ولكن ليس بالهجوم المباشر عليه بل بالسيطرة عليه من داخله او بتفجيره وتفجير الاوضاع العامة به ، كنهج استراتيجي .

بذلك نفهم حرص اسرائيل على التمسك بوضع الجيب الساحلي الممتد من بيروت الى شكا .

وبذلك نفهم لماذا لا ترتاح ، بشكل خاص ، المدن الساحلية اللبنانية : صور ، صيدا ، بيروت ، طرابلس .

وبذلك نتوقع اتجاه التفجير الداخلي نحو الساحل الشمالي في طرطوس وبانياس واللاذقية . بل اكثر واكثر . اننا نعتقدان خطة اسرائيل تقوم على « خطوط حمر » اجتماعية وسياسية وامنية واقتصادية وثقافية متقدمة على الخطوط الحمر العسكرية . انها تمثل نسبة عالية من المجهود الحربي الاسرائيلي ، كما تقف وراء نسبة عالية مما يجري في اوساطنا . ولا شك ان هذه النقطة بالذات تحتاج الى دراسات مستقلة نظرا لاهميتها الحالية ولموقعها المميز في مفهوم السلم الاسرائيلي .

واذا كانت هذه الخطوط الحمر خفية ومضمرة ، فسيرتفع صوتها عاليا عند اول مناسبة في لائحة شروط اسرائيل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والادارية والتعليمية والثقافية والدينية ، فضلا عن الامنية والعسكرية . واذا كانت الان شروطها تتعلق بالصواريخ ومواقعها والطائرات وطلعاتها ، والجيوش وتنقلاتها ، فستكون شروطها غدا متعلقة بعدد الجامعات ونوع الكليات ومستويات العلوم المسموح بها في مفهوم امنها القومي . وهذا النوع من الشروط سينسحب على اكثر الامور والقطاعات الاخرى في حياتنا : على التربية والتعليم والصحافة والاذاعة والتلفزيون وقوانين الاحزاب والانتخابات والمشاريع الانمائية ومواقع الصناعات وحجمها ومستواها . .

ولن تعدم اسرائيل وسيلة لايجاد الصيغ والاسماء لتغطية هذا التحكم بحياتنا . ففي مصر مثلا ، وبحجة تطبيع العلاقات وتعزيز الثقة وروحية السلم ، اصبح لاسرائيل قبضة على حياة مصر الداخلية وقراراتهاالداخلية والخارجية . ولعل هذا مابدا المصريون ، حكما وشعبا، يشعرون بوطاته وخطره في هذا البعد الستراتيجي الذي يتلخص بالتعامل الحربي المباشر مع بنية مجتمعنا ، ترتسم خصوصية المرحلة الحربية الراهنة .

٣ ــ خصوصية عامل الزمن عندنا :

في خلفية الكثير من فكرنا وعملنا القوميين مراهنة على عامل الزمن .

الموقف النظري في هذه المراهنة يتلخص بما يلي : الشعوب انتصرت في الصراع الاخير على الاستعمار والامبريالية مهما تفوقت قوى الامبريالية المادية . والامثلة على ذلك لا حصر لها . ولم يشذ عن هذه القاعدة احد .

ومن جهة ثانية هناك مبدأ حتمية التقدم ، فلا يعقل ان نسير الى الوراء . فالمسألة مسألة وقت . والزمن الى جانبنا . هذا ما يلخص الخلفية النظرية للمراهنة على عامل الزمن .

اولا : في راينا ان هذه الخلفية النظرية لا تنطبق على حالتنا بأي شكل

ثانيا : الاعتماد عليها ، في موضوعنا ، قائم على الجهل الكامل .

ثالثا : سمحت هذه الخلفية بأن ينضوي تحتها ويقبع اكثر من نقيصه واكثر من رذيلة ، منها الكسل الذهني المتفشي الذي يجد في المراهنة على عامل الزمن خلاصا من عناء الفكر وقلق النفس ، ومنها الانحلال الصراعي الذي يجدفيها منفذا لتبرير التهرب من العمل والصراع، ومنها الانحلال الاخلاقي الذي يجد فيها بابا للتحلل من المسؤولية .

رابعا : الاعتماد على هذه الخلفية في موضوعنا القومي والسياسي والاجتماعي ، ادى ، منذ العشرينات ، الى كوارث عندنا . واذا نظرنا الآن الى نصف القرن الاخير من حياتنا نظرة متفحصة واقعية ، وقمنا بعملية مراجعة في العمق لرسم خط بياني دقيق لاوضاعنا ، تبين لنا اننا في خط انحداري متسارع . ففي راينا ان فرص العمل الانشائي في حياتنا المفرغة وفرص العمل الصراعي في حياتنا المهددة وفرص العمل التغييري في حياتنا المجمدة وحتى فرص العمل الاصلاحي البسيط في حياتنا المخربة ، هي على تناقص وتراجع سنة بعد سنة وعقدا بعد عقد . ففي الاربعينات والخمسينات اصبحت مهمتنا الانشائية والصراعية والتغييرية والاصلاحية اصعب منها في العشرينات والثلاثينات .

وكذلك في الستينات والسبعينات اصبحت اصعب منها في العقدين السابقين . بل اكثر من ذلك . ان سرعة الانحدار تتزايد عقدا بعد عقد ، خاصة في السنوات العشر الاخيرة التي يمكن اعتبار تراجعاتنا فيها موازية لتراجعات نصف القرن بكامله .

وفي رأيي ان الاصوات التفاؤلية المرتفعة، معددة انتصاراتنا ، مسجلة انجازاتنا ، مطمئنة الى مصيرنا مؤكدة حتمية انتصارنا الاخير ، هكذا في المطلق ، انما هي تفاؤلية مريضة اما في فكرها واما في اخلاقها . ان خصوصية عامل الزمن عندنا في ضوء طبيعة الحرب علينا وتطورات هذه الحرب ، هي أقوى خصوصية .

٤ ـ الرد الفريد : أو فلسفة حرب تحريرنا القومية :

لقد توقفنا طويلا ، نسبيا ، عند طبيعة هذه الحرب واهدافها ، وعند المرحلة الحربية الراهنة واهم ملامحها ، لنصل الى تعيين نوع ردنا نحن على هذه الحرب اي نوع حربنا التحريرية، طبيعتها ، مقوماتهاومواصفاتها الاساسيـة .

في مواجهة الحروب التقليدية لكل حرب تحرير خصوصية اساسية فكيف في حربنا ، ونحن نواجه الخصوصية الحربية بالذات فضلا عـن مواجهتنا الحروب التقليدية الاخرى . فاذا توقفنا طويلا ، نسبيا ، عند طبيعة الحرب علينا وتطوراتها حتى مرحلتها الراهنة ومدى نجاحاتها فلاننا نعتقد ان هذا هو الطريق الصحيح للوصول الى تعيين مبدئيات حرب تحريرنا القومية . غير هذا الطريق يوصلنا الى لائحة عقاقير ، مجرد لائحة عقاقير ، وما اطولها لائحة واكثرها عقاقير ، الا انها كلها لا تصنع دواء . لنعد الى ما التزمنا به في مطلع هذا الجديث ، اي محاولة رد المعادلات الى ابسط صيغها .

راينا ان غرض الحرب الاسرائيلية هو تقويض مجتمعنا في اشـمل عملية اجتثاثية ، وان فلسفة الحرب الاسرائيلية هي التعامل الحربي المباشر مع مجتمعنا ، فهي ، عموديا ، تطارد ستة آلاف سنة من بعد مجتمعنا التاريخي ، وهي ، افقيا ، تطارد اجيالنا الحاضرة في بنيتهـا وحياتها على ارض وطنها وحيث انتشرت في العالم . فموضوع الحرب هو المجتمع . ومسرح الحرب هو في قلب المجتمع . والمجتمع هو طـرف الحرب ، الاساسي الوحيد .

وفلسفة حرب تحريرنا القومية تتلخص بمجتمع يخوض الحـرب على حربة وعلى معرفة وعلى ارادة ، وعلى قدرة . هذه مواصفات المجتمع الحربي . وهذا يمر ، في ضوء طبيعة حربنا ، بمجتمع النهضة ، الجديد .

لن نسترسل في مواصفات مجتمعنا الحربي ومجتمع النهضة الجديد. ولكن لابد من التذكير اننا لا نعني بالمجتمع الحربي، مجتمع الخوذات الحديدية والبنادق والمدافع والطائرات، التي تبقى، رغم أهميتها، مجرد جانب من جوانب عدتنا الحربية. ان عدتنا الاساسية هي الانسان، وعدة انساننا الاساسية هي ان نكون مجتمعا واحدا، متماسكا، حرا، عارفا ومريدا وقادرا. هذا ينسجم مع تعريف النهضة بانها الخروج من التفسخ والتضارب والشك الى الوضوح والجلاء والثقة واليقين والايمان والعمل بارادة واضحة وعزيمة صادقة. (المحاضرة الاولى من المحاضرات العشر ـ سعاده).

موضوع الحرب هو المجتمع. مسرح الحرب هو في قلب المجتمع. والمجتمع هو طرف الحرب الاساسي الوحيد.

لاول مرة في تاريخ الانسانية يكون مجتمع ما معنيا، بكليته، بحرب مصيرية على هذه الشمولية، تتناوله في بعده التاريخي كما في حاضر اجياله ومستقبلها، وتتناوله في كل عام وفي كل خاص وفي كل تفصيلي.

ولاول مرة في تاريخ الانسانية يكون على مجتمع ان يرد « بكليته »، بعامه وخاصه وتفاصيل بنيته، ليخوض حربه الشاملة، على جميع الجبهات، وفي وقت واحد، وبجميع قطاعاته ومرافقه ومؤسساته وافراده، دون ان يكون امامه الا فسحة زمنية قصيرة جدا، نسبيا، وهي فسحة زمنية متاحة للتعويض عن فسحات حربية سابقة كانت فيها الحرب مخاضة من جانب واحد، جانب العدو وحده.

هذه، بأبسط الصيغ، معادلة فلسفة حربنا القومية الراهنة. هذا يعني ان المجتمع، ولا احد غير المجتمع، هو طرف الحرب الاساسي. هذا يعني، تحديدا، ان لا احد يستطيع ان يخوض هذه الحرب، على نجاح، اذا اعتبر نفسه بديلا عن المجتمع. لا الانظمة ولا الجيوش ولا الاحزاب ولا المنظمات تستطيع ان تدعي انها البديلة وان تترك المجتمع على هذه الحالة.

وهذا يعني ان حربنا يجب ان نخوضها حيث هي بالفعل ، لا حيث نشتهي ، نفسيا ، ان تكون ، أو حيث نجتهد ، ذهنيا واستبدادبا انها هنـاك . .

٥ ــ ترجمة الرد في ضوء أوضاعنا القائمة :

هنا نصل الى المفصل الاساسي ، الى تحديـد العمـل وتحديـد المسؤليات وتعيين المسؤولين ، وهذا من ضمن سلم اولويات عامة .

قد يقول قائل : ولكن جعل المجتمع ، كامل المجتمع ، الشعب ، كل الشعب ، هو الموضوع وهو المسرح وهو الطرف الاساسي الصالح ، يسيب القضية ويرمي بالكرة في ملعب الشعب ويعفي الانظمة والحكومات والمنظمات والاحزاب من مسؤولياتها .

الحقيقة ان هذا استنتاج متسرع ، وعكس ذلك تماما هو ما نتوصل اليه الان . اننا نريد ان نؤكد مسؤوليات الانظمة والحكومات والمنظمات والاحزاب ، وان نؤكد ضرورة استمرار وتصعيد عملها القائم ، ولكننا من جهة ثانية نؤكد ان عليها ان تدرك ان مهمتها الاساسية ان تؤهل الشعب وتمنحه فرصة الاتجاه الصحيح ، وذلك من ضمن نضالها نفسـه . فالمهمتان متلازمتان على ان تكون مهمة تأهيل الشعب هي الفـرض الاخير . فاذا كانت كل بناها ، في جيوشها وميليشياتها وتنظيماتها ليست البديل عن الشعب الذي هو الموضوع والمسرح والطرف ، عند ذلك ترتسم الحدود الفاصلة بين مسؤولياتها في تأهيل الشعب عبر نضالها نفسـه ، وبين تعديها صلاحياتها في اعتبار نفسـها البديل عن الشعب ، وهـذا يؤدي ، نظريا وعمليا ، الى حرمان الشعب هذا الحق ، اي الى الاعتداء علـى الشـعب .

كما ترتسم الحدود الفاصلة بين الانظمة والاحزاب والمنظمات المنبثقة من صميم الشعب المسؤولة تجاهه المؤمنة به كل الايمان والمراهنة عليه

في حسابها الاخير ، وبين الذين تأمنت لهم السلطة وتأمن لهم السلاح والمال ، دون ان يكون لقضية المجتمع علاقة بظهورهم ، فاعتبروا انفسهم بديلا .

وهنا نريد ان ننتقل من المبدأ والتعميم ، الى التطبيق والتخصيص . ما هي شروط هذا المنطق ، العملية ؟ بل ما هي الشروط الواجب توفرها للشعب ليسترجع اتجاهه ، ليسترجع هذا الحق ؟

في رأينا ان الشروط الواجب توفرها ليست شروطا متواضعة لذلك يحسن بنا ان نصنفها الى شروط ضرورية وشروط كافية ، ثم نكتفي من الشروط الضرورية بأولياتها وأساسياتها ، حتى لا نخرج على حدود الممكن والمعقول في ادنى حدوده ، وفي ضوء تعاملنا الواقعي مع الاطراف المعنية .

علما ان هذه الشروط الضرورية في اولياتها ليس من شأنها ان تنقل المجتمع من حالة الى حالة ، ثم ان تنتظر حصول هذه الحالة للانتقال الى حرب التحرير . بل الغاية وضع المجتمع في اتجاهه الصحيح ، من ضمن عملية الصراع التحريري نفسه .

بالنسبة الى الانظمة والحكومات

ثلاثة تحديات تتعلق بأساسيات حياة مجتمعنا واجهت كل حكم في كل من كياناتنا منذ اكثر من نصف قرن . وفي التحديات الثلاثة سقط كل حكم في الامتحان . التحدي الاول موضوع العلمنة ، موضوع الدين والدولة ، موضوع حماية الدين من سوق التجارة السياسية وغير السياسية ، وموضوع حماية المجتمع والدولة والوطن من تجار الدين والسياسة ومن اختلاطات الاجتهادات الدينية ـ السياسية . موضوع تأسيس المواطنة على العلاقة بالارض وعلى العلاقة الممتدة في المجتمع بلا حدود ولا تمييز بكل عضو في المجتمع وبكل قطاع وبكل مؤسسة

وبكل فرصة من فرص الواجب والمسؤولية والحق والحرية . انه ، في الاخير ، المدخل الصحي الى موضوع الانتماء وموضوع الهوية .

بكل اسف سقطت الانظمة في هذا الامتحان ، حتى لا نقول اكثر .

التحدي الثاني هو موضوع الوحدة القومية او دورة الحياة القومية او الحدود الاولية من دورة الحياة بين الكيانات القائمة ، التي تجدد عهد الدولة ـ المدينة بكل ضيق افقها وبكل انانياتها وبكل عجزها الذي اوصلها في النهاية الى حتفها . مع فارق بسيط هو ان الدول ـ المدن الكنعانية لم تسجل على نفسها ، طوال تاريخها ، انها خاضت حربا واحدة فيما بينها .

وحدها دورة الحياة تؤمن للمواطن وحدة النظر ووحدة الشعور ووحدة الثقافة وممارسة وحدة الحياة ووحدة المصير .

على دورة الحياة القومية وحدها يبنى اقتصاد سليم ودفاع سليم وتمثيل قومي سليم ، في مواجهة العالم الخارجي .

هذا في بعض الايجابيات . أما السلبيات الحاصلة فلائحتها طويلة يضيق المجال هنا بذكرها . ولكننا نشدد على ظاهرتين خطرتين متزايدتين : الاولى تتعلق بالمواطن مباشرة ، وهي الحروب الصغيرة بين الانظمة ، التي تنعكس ، عمليا ، عقوبات ينزلها رجال كل حكم ليس فقط برجال الحكم الآخر بل بالنظام الآخر ، بل بالكيان الآخر ، بل بكل مواطن من مواطني الكيان الآخر . وهكذا يصبح كل مواطن في كل من كياناتنا خاضعا ، بشكل مباشر او مداور ، لعقوبات تنزلها به انظمة كل من الكيانات الاخرى .

والظاهرة الثانية تتعلق بالمواطن ايضا ولكن عبر موضوع الحرب والسلم . وهنا اكتفي بالقول ان اكثر انظمتنا لم يقتنع بعد بأن العدو يستهدفنا جميعا في الاخير وانه لامجال لمرور السلم الاسرائيلي والحرب

الاسرائيلية الا على جثثنا جميعا . فلا مجال لتخليص رأس على حساب رأس آخر ، ولا مجال لتقديم فدية للتنين لتخليص المدينة ، حتى لو كانت الفدية مدينة اخرى .

وهنا ايضا نكتفي من الوحدة القومية بالاتجاه على الاقل ، باقل الاجراءات التي تضع مرافق الحياة في الكيانات في اتجاه واحد وتسمح لحركة الحياة الطبيعية ان تأخذ دورها الطبيعي دون تدخلات سلبية . واذا كان لابد من خلافات بين الانظمة ، وقد يكون بعضها مبررا ، فلتنزل العقوبة بالنظام لا بالكيان ولا بالمواطن .

التحدي الثالث هو موضوع الحريات . لنذكر اننا في صدد موضوع حرب التحرير القومية . والتحرير القومي يمرّ حكما بالمجتمع الحرّ ، بالمواطن الحرّ .

والحرية ، الى جانب كونها ظروفا موضوعية وظروفا مادية ، هي وضع اخلاقي ونفسي ، وضع ذاتي ، تحياها الذات الانسانية كما تنشق الهواء وكما الغذاء والدفء والحركة الطبيعية للأجسام الحية . فالمجتمع لا يخوض حربه الا بالحرية . والحرية ليست مجرد شكل لرفع العتب .

اتكلم عن الايمان بالحرية بمفهومها العميق المؤسس على معرفة ان الانسان لا يعمل ، لا ينتج ، لا يفكر ، لا يحارب حربه الكبرى ، لا يخلق ، الا اذا كانت الحرية عميقة في وجدانه ومتحولة الى طمأنينة صحية في طيات نفسه ، طمأنينة الى قيمته وكرامته وجدوى تضحياته وفاعليتها في قلب مجتمعه اولا .

بل اكثر من ذلك . الانسان لا تنمو تطلعاته واحاسيسه الصحية ، فيأمل ويتألم ويفرح ويحزن ويشجع ويخاف خوفه الكبير وقلقه الكبير على مجتمعه الا اذا كانت الحرية دخلت في نسيج كيانه واصبحت تلفه وتلف فضاء كيانه ، مؤمنة حوله كما الماء والاوكسجين وكما علاقته

العضوية بالطبيعة التي يلمسها ويشمها ويسمعها ويبصرها ويتذوقها ويتنشقها ويعقلها .

واذا كان هذا صحيحا بالنسبة الى الشعوب عامة ، فهو ينطبق بشكل خاص على شعبنا ، الاصيل في ممارسة الحرية . وصاحب الرسالات الانسانية القائمة على القيم والروح الانسانية .

ومتى تذكرنا ان هذه الحرب ، كل هذه الحرب تقوم على حيوية المجتمع ، المباشرة ، ومبادرة المجتمع ، بامتياز ، ندرك كيف ان عامل الحرية حاسم في حرب تحريرنا .

لكن الحرية جوهر وليست شكلا محددا . اشكال الحرية الغربية هي انماط حياتية توصل اليها الغرب عبر تجربته الخاصة ووفقا لحاجاته ومستواها . ومع ذلك فاننا نشهد في الغرب ازمة بين الحرية واشكالها . اننا ندعو الى اعادة نظر بأكثر الصيحات المراهنة على اشكال وانماط للحرية اصبحت ، في منشاها نفسه ، موضوع اعادة نظر .

وفي الاخير ، لابد لنا من ان نتذكر ان خطة العدو تقوم على التعامل الحربي المباشر مع بنية مجتمعنا . هذا يعني انه يحاول ان يمرر اعماله الحربية في قلب مجتمعنا تحت شعار حرية الحركة والعمل لجيوبه وادواته .

وهذا يعني ان قسما من جهودنا الحربية يجب ان تتحول الى ضرب البؤر المطالبة بحرية تهديم المجتمع وتمزيقه .

لا يفصل في هذه الامور ، في ماهو حرية المجتمع ، الاساسية ، وفي ما هو حرية العدو بتمزيق المجتمع من الداخل ، الا العقلية الاخلاقية المسؤولة عن تأمين شروط انتصارنا في حربنا التحريرية عبر تأهيل المجتمع ، من جهة ، وعبر حمايته في داخله ، من جهة ثانية .

بالنسبة الى المنظمات والاحزاب

ان قسما كبيرا مما قلناه في شأن الانظمة والحكومات ينطبق على المنظمات والاحزاب . عليها دائما ان تذكر نفسها بامرين :

الامر الاول انها ليست البديل عن الشعب الذي هو موضوع عملها ومسرح عملها ، مصدرها ومآلها . فاذا كانت حقا نموذجا ومصبا للعمل الشعبي المنظم فلتكن في عملها بـدا تقاتل العدو حيث تجـده ، ويدا تؤهل الشعب وتتعلم منه . هي هذه أصول لعبـة القيادة في الشعب الاصيل الحي : القيادات تعطي الاتجاه والنموذج التنظيمي ، والشعب يشق الطريق ويقوم بالمسيرة ويصل هو الى هدفه .

اذا التزمت المنظمات والاحزاب بهذا المبدا ، بهذا الدور ، بهـذه الوظيفة في كل عمل وتصرف واجراء ، عندئذ يتغير الكثير من خطط الاحزاب والمنظمات ويزول الكثير من متاعبها الحالية ومتاعب الشعب بهـا .

والامر الثاني الذي يجب ان تذكر نفسها به هو ادق واشمل ، وهو انها لا تستطيع ان تختصر هذه الحرب القومية التي قلنا انها حرب المجتمع بكامله ، لا تستطيع ان تختصرها بوجه من وجوهها او بقطاع واحد من قطاعاتها . فاذا كان المجتمع هو الجيش الكبير الذي علينـا ان نعده ، كما مر معنا في تحديد هوية الحرب علينا وهوية حربنـا التحريرية ، فلا يحق لنا اختصار هذا المجتمع ــ الجيش بحامل البندقية في شوارعنا . وحامل البندقية من اعضاء احزابنا ومنظماتنا الشعبية اذا لم يشعر انه يصدر عن جسم مركب هو المجتمع وهـو مسؤول معنويا ومسلكيا في كل تصرف تجاهه ، عندئذ يتمدد حامل البندقية على حساب محيطه وعلى حساب نفسه ، يتمدد حتى الفساد ، فساده هو وفساد وظيفته الاساسية والغاية البدئية من وجوده . يصير حامل البندقية بدون بنية اجتماعيـة يصدر عنها وتغذيه وتحميه كمـا هو

يحميها . يصير حامل البندقية يحمي نفسه ويعتدي على جيشه اي على مجتمعه . ان واضعي القنابل في شوارعنا لا ينجحون بمهماتهم لان عدد مسلحي الحزب قليل في الشوارع بل لأن الشعب لم يؤهله وينظمه احد على اساس انه جيش قضية .

واخيرا ، عود على بدء .

ان خصوصية الحرب علينا وخصوصية المرحلة الراهنة وتسارعها، وخصوصية حرب تحريرنا القومية ، كلها تصب في خصوصية اساسية يجب ان نجعلها شعارا لحياتنا ، شعارا لنا ولبيوتنا وعائلاتنا ، شعارا لاجيالنا التي لم تولد بعد ، هي خصوصية صراع الموت والحياة بين اليهود ومجتمعنا .

ولنعلم ان الصهيونية ليست أشد الحركات اليهودية عدوانية .

المشاريع التسووية الإسرائيلية وإمكانية التسوية

المحامي جوزيف السبعلي

الصهيونية حركة تنتمي الى العصر الامبريالي وهدفها بعث امة اسرائيلية في فلسطين ، وتعود ولادة هذه الحركة الى دافعين جوهريين دافع امبريالي افرزته المصالح التوسعية الامبريالية ودافع استلهمته من التراث اليهودي التاريخي .

الدافع الامبريالي

اول من خطط باسلوب منظم ومدروس لبناء وطن قومي لليهود هو هرتزل الذي اصدر في عام ١٨٩٦ كتابه « الدولة اليهودية » وعرض فيه بالتفصيل لقوام هذه الدولة وهيكليتها واستهدافاتها . والكن لم يكن هرتزل اول من دعا لبناء دولة يهودية ففي ظل موجة توسع البلدان الامبريالية في العالم دعا لها الكثير من رجالات الاستعمار ومفكرية .

فنابليون بونابرت اثناء حملته على مصر في عام ١٧٩٩ دعا اليهود « للعودة » الى فلسطين واعادة بناء الهيكل وكان هدفه من هذه الدعوة استمالة يهود العالم ليتحولوا الى عملاء له ولقطع الطريق على اي سلطة وطنية تقف في وجه اطماعه في هذه المنطقة الاستراتيجية من العالم .

كما وان بناء هذه الدولة لقي منذ اواسط القرن السادس عشر اهتماما كبيرا لدى البورجوازيين الانكليز ويؤكد هذا الامر المؤرخ كوبلر بقوله :

« لقد حظيت فكرة اعادة اليهود الى فلسطين برواج واسع في انكلترا وتحولت الى مذهب يربو الان على ثلاثة قرون » .

والمؤرخ اليهودي ناحوم سوكلوم يؤكد دور الانكليز في دفع الحركة الصهيونية فيقول :

« لقد قام المسيحيون الانكليز بتعليم المبادىء التي تقوم عليها القومية اليهودية . »

لقد كانت الصهيونية منذ بداية قيامها جزءا لا يتجزأ من الحركة الامبريالية الهادفة الى التوسع واضطراد النمو وهرتزل كشف بوضوح وصراحة هذا في كتابه « الدولة الاسرائيلية » فقال :

« اننا سنشكل جزءا من متراس لاوروبا في وجه آسيا .... كقاعدة امامية تعارض البربرية وينبغي علينا كدولة محايدة ان نبقى متحالفين مع اوروبا بأكملها التي سوف يترتب عليها ان تضمن وجودنا»

ويعود هرتزل فيؤكد هذا الدور الامبريالي لاسرائيل في المؤتمر الصهيوني الاول الذي عقد عام ١٨٩٧ فيذكر : انه لمن مصلحة الامم المتمدنة اكثر فاكثر .. ان تؤسس محطة حضارية عبر اقصر طريق لآسيا » .

مما سبق يتضح ان الدولة الصهيونية هي في جزء منها استجابة لمصالح الامبريالية الاوروبية مثلما هي استجابة لمصالح الصهاينةاليهود وان ارتباط المصلحة بين الطرفين كان في اساس الاعتراف العلني من قبل بلفور وزير خارجية بريطانيا بحق اسرائيل في « وطن قومي » في فلسطين وذلك بتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ قبيل انتهاء الحرب العالمية الاولى لتكون الضامن والاداة لنهب موارد شعوب المنطقة وخيراتها من قبل الدول الاستعمارية المنتصرة في حرب مكلفة كان من اهدافها الاساسية الصراع على نهب المستعمرات . وقد سبق وعد بلفور تقسيم سورية الكبرى في معاهدة سايكس بيكو ١٩١٦ كيانات مبعثرة لضمان الكيان الصهيوني فكانت التجزئة هي التمهيد للتهويد .

واستمر دعم المستعمر البريطاني للمغتصب اليهودي بدافع المصلحة المشتركة طيلة فترة الانتداب البريطاني على فلسطين وقد ترافق الوجود البريطاني في فلسطين منذ بدايته مع تعزيز المصالح اليهودية حتى ان « حماية اليهود اصبحت وظلت خلال سنوات طويلة المهمة الرئيسية للقنصل البريطاني في القدس » .

واستمر الدعم البريطاني لاسرائيل الى ما بعد الحرب العالمية الثانية حين اصبحت الولايات المتحدة الاميركية مركز الثقل الاساسي للامبريالية فانشدت اسرائيل الى المركز الاساسي ولا زالت متحالفة معه .

الدافع الايديولوجي اليهودي :

الدافع الاخر للمطالبة بدولة يهودية في فلسطين هو الاستناد الى « وعد » توراتي « للشعب المختار » بأرض فلسطين ، وهذا ادى الى انتماء اليهودي الى يهوديته التي فرضت عليه وطنا خارج وطنه وبالتالي ابقائه غريبا في مجتمعه منبوذا ومضطهدا . وما يجدر الاشارة اليه انه قبل تصاعد نمو الامبريالية في اوروبا كان التفسير التوراتي لارض الميعاد تفسيرا مثاليا يعتبر ان ارض الميعاد ليست من هذا العالم وان تحقيق الوعد « تحققه مشيئة الله وليس ارادة البشر » ومازال ثمة تيارات يهودية تؤكد على هذا المعنى في تنزيهها لإلهها عن ان يكون مطية لشؤون الدنيوية ولكن مع تصاعد الدور الامبريالي وامكانية تحقق هذا الوعد بدات بذور الدعوة الدنيوية للعودة الى ارض الميعاد تتنامى الى ان بـرزت بأجلى صورها في كتاب هرتزل وبـدا تنفيذهـا في المؤتمر الصهيوني الاول في مدينة بال عام ١٨٩٦ .

بعد ان اطلعنا على الدافعين الاساسيين للعودة الى ارض الميعاد لا بد لنا من الاهتمام بمعرفة الارض المقصودة وما هي حدودها ومن هـم بالتخصيص اصحاب الحق في العودة اليها ليتسنى لنا على ضوء ذلك ادراك طبيعة الحركة الصهيونية ومدى احتمالات التسوية بين هذه النزعة العنصرية الامبريالية وبين المصالح الوطنية للشعب في هذه المنطقة .

الارض :

الوعد التوراتي لم يحدد الارض بوضوح ، وهذا ما حدا بالكثير من اليهود الى معارضة الحركة الصهيونية في اولى انطلاقتها معتبرين ان الارض الموعودة هي « ارض الهية » ولكن بعد مؤتمر بال الذي نص ان « هدف الصهيونية هو اقامة دولة يهودية في فلسطين » اصبحت فلسطين هي الارض الموعودة . دون تحديد واضح لحدودها ولكن الكل متفقون ان حدود اسرائيل الحالية قاصرة عن حدود ارضهم التاريخية

فغولدا مابير تعتبر « ان حدود الدولة هي حدود المنطقة التي يسكن فيها يهود » بمعنى انه « الدولة تمتد مع امتداد الاسكان اليهودي وانتشاره » ، ومناحيم بيغن يؤكد في تصريحاته « ان الدولة تقوم على جزء من ارض اسرائيل » .

وحاليا تعتبر اسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم الغير محددة بحدود واضحة في دساتيرها ونظمها ولكن يوجد بعض التحديدات التي اشار اليها بعض قادة اسرائيل والتي يمكن ان يستشف منها الخطوط العريضة لحدود العدوان الاسرائيلي .

منها تحديد للبروفيسور شاحاك وهو احد القادة والمفكرين الصهاينة يورده في مقال له بعنوان الصهيونية عارية :

« لقد كان الهدف من مشروعنا وما زال تحرير ارض اسرائيل الكاملة بحدودها التاريخية الممتدة من الصحراء شرقا الى البحر المتوسط غربا ومن لبنان شمالا الى البحر الميت جنوبا وجعلها وطنا قوميا لاكثرية الشعب اليهودي » .

وفي العام ١٩١٩ وزع الوفد الصهيوني الى مؤتمر الصلح في باريس خريطة « الدولة صهيونية » تشمل كل فلسطين بالاضافة الى لبنان الجنوبي بما في ذلك صيدا وصور ومنابع نهر الاردن وجبل الشيخ والقسم الجنوبي من نهر الليطاني كما تشمل ايضا مرتفعات الجولان ومدينة القنيطرة ونهر اليرموك وصولا الى وادي الاردن بكامله والبحر الميت والمرتفعات الشرقية حتى مشارف عمان والى خط يتجه جنوبا بمحاذاة الخط الحديدي الحجازي حتى خليج العقبة .

هذه هي بعض التحاديد للارض التاريخية وما يجدر ملاحظته في هذا المجال ان المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة في تعاقبها منذ ولادة الدولة حتى الان تحاشت التحديد والتوضيح لعدم الالتزام بحدود يصعب التنصل منها فيما بعد لان المشروع الصهيوني لم يكتمل وهو معد لاستيعاب اشتات الشعب اليهودي الموزعة في العالم .

الشعب اليهودي :

تنطلق دعوة اليهود الى ارض الميعاد من كونهم عنصرا مستقلا غير قابل الاندماج او العيش بسلام مع المجتمعات الاخرى وان هذا الشعب يتمتع بصفات ومزايا خاصة لا يمكن لها النمو والازدهار الا في مجتمع او كيان مستقل والنظرة اليهودية تعتبر انه مثلما ان « فرنسا للفرنسيين .. وانكلترا للانكليز فان فلسطين لليهود » ومن هذا المنطلق لا يقرون لاحد غيرهم في الحق بارض فلسطين .

ويعتبرون ان فلسطين هي « ارض بلا شعب لشعب بلا ارض » وهذا الالغاء المتعمد لسكان فلسطين هو الذي يفسر الاعمال البربرية والمجازر الوحشية التي ارتكبها الصهاينة بحق اصحاب الارض سكان البلاد الأصليين .

القواعد الأساسية لتنفيذ المشروع الصهيوني :

ان كل الطروحات والحلول الاسرائيلية وضعت لتخدم عودة اليهود الى ارض اسرائيل التاريخية وقد استمرت عمليات القضم والهضم منذ عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٤٩ وحتى ١٩٥٦ مرورا بما قضم في حرب حزيران ١٩٦٧ وفي حرب تشرين ١٩٧٣ وتحرير « اسرائيل التاريخية » بما يكتنف هذا الشعار من غموض ظل الهاجس الذي لازم قادة اسرائيل من هرتزل الى وايزمن وبن غوريون وغولدا مائير واخيرا بيغن ، وقد اعتمد هؤلاء وكل المؤسسة الحاكمة في اسرائيل سواء من هم في السلطة او المعارضة جملة من القواعد الاساسية وكانوا متفقين حولها رغم كل الخلافات والتناقضات الثانوية بينهم ، وان اية تسوية لا يمكن القبول بها الا اذا كانت ستتم على حساب هذه القواعد في العمل لان في التخلي عنها ضربا للمشروع الصهيوني الذي لم يكتمل حتى الآن .

وهذه القواعد هي :

١ ـ الهجرة المستمرة :

ان الهجرة هي قاعدة اساسية في بنيان الكيان الاسرائيلي ولولاها لكان المشروع الصهيوني محالا . وقد برز الاهتمام الصهيوني بتشجيعها منذ المؤتمر الصهيوني الاول الذي عقد في بال ولأهمية هذا العامل فان قادة الصهيونية كانوا يفرحون كما لعرب هيرتزل « بالعداء للسامية » لأن من شان هذا العداء ان يساهم في عودة اليهود الى « ارض الميعاد » . ونظرا لاهمية الهجرة اشار لها اعلان الاستقلال فورد ان « دولة اسرائيل سوف تفتح الابواب امام الهجرة اليهودية » . وطوال الحقبة التاريخية الممتدة منذ ولادة الدولة الاسرائيلية حتى الآن ما انفك القادة الصهاينة في الداخل والخارج يجدون لتشجيع الهجرة بمختلف الاساليب والوسائل لدرجة ان اسرائيل جعلت اميركا تضغط على الاتحاد السوفياتي من أجل « عودة » اليهود السوفيات . حتى ان بن غوريون في زياراته الى اميركا الجنوبية وكندا كان يؤكد على ان الخطر الاكبر على اسرائيل (اي على المشروع الصهيوني) هو في اندماج اليهود في هذه الدول وانصهارهم في مجتمعاتها الحضارية المتقدمة .

لقد نشطت الهجرة الى اسرائيل بعد تأسيسها وترافق مع تكاثر عدد المهاجرين اليهود التوسع على ارض اسرائيل التاريخية وذلك طوال الفترة الممتدة منذ وصول اولى دفعات المهاجرين حتى حرب حزيران ١٩٦٧ . ولكن بعد هذه الحرب التي احتلت فيها اسرائيل مساحة من الارض تزيد على اربعة اضعاف مساحتها ويسكنها ما يزيد على مليون ونصف فلسطيني اختل التوازن ولم تعد الهجرة تغطي مساحة التوسع الشاسعة. ثم جاءت حرب تشرين ١٩٧٣ فتعرض الكيان الصهيوني لهزة قوية نتج عنها تضاؤل في معدلات الهجرة المتوقعة والمحتملة الى اسرائيل وشهدت السنوات الاخيرة الماضية هجرة معاكسة الى الخارج .

ان هذا الوضع الناجم عن احتلال اسرائيل مساحات شاسعة وعدم تمكنهـا من طرد السكان الذين يربو عددهم على مليون ونصف بسبب الظروف السياسية والموازين الدولية هذا الوضع اوقع اسرائيل في مازق ملخصه ان الاحتفاظ بالارض سيؤدي في ظل التواجد الفلسطيني الكثيف الى ولادة دولة ثنائية القومية عاجلا ام آجلا او التخلي عن « الارض التاريخية » وفي كلتي الحالتين ايقاف لتكامل المشروع الصهيوني . لذا فان اسرائيل بحاجة الى اعادة ترتيب الاوضاع بما يكفل استعادة تدفق المهاجرين الى ارض الميعاد وتصحيح الخلل السكاني بكل الوسائل لضمان وحدة القومية والسيادة الاسرائيلية على الارض .

٢ ـ قاعدة تفتيت العالم العربي :

المدى الحيوي للمشروع الصهيوني يمتد من الفرات الى النيل ولاكمال تحقيق نجاحات على طريق انجاز هذا المشروع لا بد من تفتيت هذه المنطقة بتغذية التناقضات فيها واستغلال كافة اشكالها من كيانية وعنصرية ومذهبية ، وهذا يدخل ضمن طبيعة المهام الموكلة الى الدولة الاسرائيلية من قبل الامبريالية اذ ان الهدف من هذه الدولة ليس فقط حل المشكلة اليهودية بل تفتيت الجبهة الشرقية والعالم العربي وقمع أي حركة تحرر وطني . وقد وعت الامبريالية باكرا اهمية تفتيت هذه المنطقة فسبق تجزئة سوريا الكبرى تهويدها ولم تكتف الامبريالية بهذا القدر فعمدت في العشرينيات الى خلق دويلات طائفية (دولة العلويين ، دولة الدروز ...) فان اسرائيل بحاجة الى ترتيب اوضاع سياسية ، عربية ودولية تمكنها من تحقيق الغرضين التاليين : جلب اشد لهجرة يهودية واسعة وكبيرة ، وتفريغ الارض من قاطنيها بمختلف الاساليب القانونية او العسكرية .

ولكن فشلت جميعهـا وحتى الآن لا زالت الامبريالية الاميركيـة بالتحالف مع اسرائيل تراهن على انماط مشابهة من الكيانات الطائفية

التي تبرر اسرائيل كدولة عنصرية طائفية وتجعلها الكانتون الاقوى بين مجموعة من الكانتونات الضعيفة .

ان اسرائيل تعي تماما ان الوحدة تميتها والتجزئة تحييها وهي حريصة على مناخ التجزئة والتفتت لانه المستنقع الذي ولدت فيه .

٣ ـ قاعدة التحالف مع الامبريالية :

ان اسرائيل تدرك تماما اهمية دورها الامبريالي في هذه المنطقة الاستراتيجية من العالم وقادة اسرائيل الاوائل اكدوا مرارا وبمرادفات تحمل ذات المضمون ان اسرائيل « قاعدة للغرب » وانها « لخدمة مصالح الغرب » وعن كونها « ضرورة استراتيجية للعالم الحر » في وجه « البربرية » وعن ضمن هذا الفهم فان قادة اسرائيل يتعاطون مع مراكز الامبريالية ليس من موقع « التابع » او « العالة » بل من موقع الحليف . ولقد اكد بيغن هذا الكلام فور انتخابه في اول زيارة قام بها الى الولايات المتحدة الاميركية فذكر : « ان اسرائيل هي حليفة مخلصة للولايات المتحدة وتبذل ما في وسعها لخدمة مصالح العالم الحر والمساهمة في الامن القومي الاميركي » .

ولكون اسرائيل تملك مشروعها الخاص بها وهو بناء دولة اسرائيل عدا عن دورها الامبريالي فهي تتمتع بهامش من الاستقلالية وتتعارض مع مركز الامبريالية في بعض المسائل الثانوية تحسم دوما لصالح « التحالف » على قاعدة المصلحة المشتركة بين الفريقين واحيانا عند اشتدادها تحتكم اسرائيل للاجهزة الاميركية نفسها مستفيدة من صراع الاجنحة وعلى اعتبار انها جزء من النظام الامبريالي وعضو فيه .

٤ ـ التفوق العسكري :

لكي تتمكن اسرائيل من انجاز مشروعها بشقيه الصهيوني والامبريالي لا بد من ان تكون لها ليس فقط القدرة على ان تحمي امنها من اي اعتداء

خارجي بل ان تكون لها القدرة على فرض ارهابها والتمكن من توسيع حدودها الامنية وهذا يستدعي دوما رجحان موازين القوى العسكرية في المنطقة لصالحها وفي الوجه المعاكس اضعاف القوة المناهضة لاسرائيل والغاء القدرة لديها على تهديد « حدودهـا الأمنية » وحدود توسعها المستقبلية . ومن ضمن الاخذ بهذه القاعدة فان اسرائيل تعتبر حامية عسكرية يخدمها مدنيون لانجاز اهدافها .

هذه هي القواعـد التي يلتزم بها كافـة الذين تعاقبوا في الادارة الاسرائيلية الحاكمة منذ ولادة دولة اسرائيل . ورغم كل الاختلافات في وجهات النظر داخل اجهزة الحكم ومع المعارضة بقيت هذه القواعد هي المعيار الذي على ضوئه تتخذ جميع القرارات وعلى هديها حاليا تطرح مشاريع التسـوية الاسرائيلية باعتبارها الضامنة لاكمال انجاز اهداف المشروع الصهيوني .

وانطلاقا من الاهـداف المتوخاة من المشروع الصهيوني والقواعـد المعتمـدة لانجازهـا سنعرض لمختلف مشاريع التسويـة الاسرائيليـة « السلمية » الحالية المطروحة بقصد فضحها وكشف انها ليست سوى محطات على طريق انجاز المشروع .

مشاريع التسوية :

استمرت اسرائيل في ظل الحديث عن السلام مع العـرب في قضم اراضي اسرائيل التاريخية ولم تتنح عن أي جزء من الاراضي العربية التي احتلتها ضاربة بعرض الحائط كل القرارات الدولية الصادرة منذ اعلان تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ حتى الآن باستثناء انسحابها من سيناء في عـام ١٩٥٦ واعـادة الانسحاب في ٢٥ نيسان ١٩٨١ ولنا عـودة الى هذا الموضوع .

اما الولايات المتحدة الاميركية فقد كانت تلتزم جانب الاهداف الاسرائيلية وفي ظل الضعف العربي الذي افرزته حرب حزيران ١٩٦٧ تجاهلت اميركا الحقوق والمطالب العربية واعتمدت فقط على اسرائيل وقوتها لضمان مصالحها في المنطقة رغم كل تبجحات مسؤوليها بالبحث عن حل لأزمة المنطقة .

الا انه بعد معركة تشرين عام ١٩٧٣ برزت جملة من المعطيات الجديدة التي وجب اخذها بالاعتبار من قبل الادارة الاميركية والاجهزة الاسرائيلية الحاكمة . فقد اثبتت حرب تشرين وبغض النظر عن خلفياتها قدرة الجندي العربي على استيعاب تعقيدات التكنولوجيا الحربية واساليب الحرب الحديثة وقدرة العرب على اعادة بناء قوتهم العسكرية بسرعة رغم الهزيمة النكراء التي الحقت بهم عام ١٩٦٧ كما ان هذه الحرب ابرزت خطورة دور النفط في مواجهة اسرائيل ولو ان هذا السلاح لم يستخدم كما هو مطلوب ثم ان حرب تشرين الحقت هزيمة كبيرة بالنظرية العسكرية الاسرائيلية القائمة على اعتبار التفوق النوعي كافيا لتحقيق التفوق الاسرائيلي المطلق فضلا عن ان الحرب الحقت بالاقتصاد الاسرائيلي وهو اقتصاد مستعمر كارثة نظرا للتكاليف الباهظة للحرب والتي قدرتها وزارة المالية الاسرائيلية بحوالي ١٢ مليار دولار ويقول بنحاس سابير وزير المالية آنذاك بانه سيكون على ابنائنا واحفادنا دفع تكاليف هذه الحرب .

بناء عليه لم يعد بمقدور الدولة الامبريالية الام الضرب عرض الحائط بكل هذه المستجدات بعد ما تصاعد دور المقاومة الفلسطينية وفي ظل تنامي دور حركة التحرر فعادت تبحث عن الحلول ونشطت مساعيها لايجاد المخارج .

اما اسرائيل فليس بمقدورها تجاهل الرغبة الاميركية في البحث عن حل ولكي لا تلتزم بمشاريع تطرح عليها ، طرح قادتها بعض المشاريع التسووية التي بعد التحليل الاخير تصب في اطار خدمة اهداف المشروع الصهيوني وتطوره وسنتناولها بايجاز :

مشاريع آلون وحزب العمل وبيقن :

١ ــ إثر حرب حزيران ١٩٦٧ واستباقا لطرح اي مشروع آخر قدم آلون مشروعا للتسوية عندما كان وزيرا في حكومة الائتلاف الوطني برئاسة ليفي اشكول ويعتبر آلون بذلك اول وزير اسرائيلي يطرح تصورا الى حد ما للتسوية في المنطقة من وجهة نظر اسرائيلية . ان آلون في مشروعه يعلن دمج قطاع غزة بالكيان الصهيوني ويوافق على توحيد القدس اما الضفة الغربية فينص المشروع على خدمتها بمستوطنات وقواعد عسكرية دون اعلان ضمها علانية وذلك لابقاء اماكن التجمع السكاني الفلسطيني مرتبطة شكلا بالاردن .

ان مشروع آلون لم ير النور واعتبر صمانيا يقدم تنازلات كبيرة للعرب .

٢ ــ وفي سنة ١٩٧٣ بلور حزب العمل مشروعا عرف باسم غليله والمشروع عبارة عن تلخيص لمواقف الاجنحة المختلفة في حزب العمل آنذاك . وجاءت الحرب والحكومة تناقش هذا المشروع فمات قبل ولادته . وتم استبداله من قبل الائتلاف الحاكم بوثيقة المبادىء الاربعة عشر الموجهة التي جاءت غامضة لا التزام فيها بمواقف محددة تحاشيا للصراع بين وجهتي نظر الحكومة التي لخصها دايان في حينه بقوله « توجد في الحزب اليوم نظرتان متناقضتان بالنسبة الى المناطق الاولى تقول ان وجود اسرائيل فيها مؤقت ولذا يجب عدم الارتباط به اكثر من اللازم والثانية تنادي بالاستمرار في العمل حتى حلول السلام والمضي قدما في السياسات الناشطة في المناطق بما في ذلك الاستيطان .

ولهذا نصت الوثيقة على العموميات فاتسمت بالغموض حرصا على لحمة الحكومة واستمر حزب العمل في تبني موقف اللاقرار في موضوع الانسحاب الجزئي أو عدمه .

٣ ـ اما مشروع بيغن فقد طرحه رئيس الوزراء الاسرائيلي على الرئيس المصري انور السادات في لقاء الاسماعيلية وهو يتعرض لمسألة سيناء وفلسطين دون الجولان فيشير الى انسحاب من سيناء بعد تجريدها من السلاح والهيمنة على الضفة الغربية تحت ستار منح السكان العرب فيها ادارة ذاتية وهذه هي المرتكزات التي على اساسها يفاوض بيغن النظام المصري حول الحكم الذاتي حاليا .

هذه هي مشاريع التسوية الاسرائيلية الاساسية المطروحة والى جانبها جملة اخرى من المشاريع كمشروع حزب « مبام » ومشروع « رعنان فايتس » وخطوط عريضة لمشروع طرحه دايان وهيكلية لمشروع تستشف من تصريحات واحاديث رابين رئيس الوزراء الاسرائيلي السابق.

ان هذه المشاريع تلتقي في الجوهر وان تمايزت في بعض التفاصيل وهي تتوزع بين خطين احدهما يتزعمه حزب العمل والثاني الليكود .

فحزب العمل يرفض الاعتراف والتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ويعارض وجود دولة فلسطينية مستقلة واعادة القدس والجولان وكذلك العودة الى حدودها قبل حزيران ١٩٦٧ ويرفض الاعتراف بأي حق للشعب الفلسطيني ومثله تجمع ليكود الذي يرفض الاعتراف بمنظمة التحرير ويعتبرها مجموعة من الارهابيين ويرفض الاعتراف بأية حقوق للشعب الفلسطيني بما فيها حقه في دولة فلسطينية والذي اصدر قوانين بضم الجولان والقدس ويتفق مع حزب العمل على مصادرة الاراضي العربية واقامة المستوطنات عليها .

اما الفروقات بين الطرفين فهي نابعة من انه بعد عام ١٩٦٧ واحتلال اسرائيل بما يزيد على اربعة اضعاف مساحتها تضم ما يزيد على مليون ونصف مليون فلسطيني دون تصاعد في الهجرة لتغطية المساحات ودون تمكين اسرائيل من طرد السكان الاصليين وقعت المؤسسة الحاكمة في مازق اساسي كان السبب في تمايز موقف الفريقين الاساسيين الحاكمين

في اسرائيل خلاصته ان الاحتفاظ بالارض التي احتلت بعد عام ١٩٦٧ سيؤدي عاجلا ام آجلا الى ولادة دولة ثنائية القومية من اليهود والفلسطينيين والتخلي عن الارض وهو ضرب المشروع الصهيوني الذي لم يكتمل بعد . لقد وقع الخلاف حول اهمية الاهتمام بأسبقية « يهودية الدولة » اما الاحتفاظ بالارض . حزب العمل تبنى وجهة النظر التي تركز على يهودية الدولة لكن موقفه غير محدد بوضوح ويقتصر في الشكل على الدعوة الى انسحابات شكلية من الاماكن الآهلة بالسكان في اطار تسوية مع الاردن . اما الليكود فيتبنى وجهة النظر التي تركز على « تكامل الارض » ويرفع شعار « الارض اولا » وينادي بعدم التخلي عن اي شبر على ان يحل بوضوح الوجود الفلسطيني في المستقبل ومشروع بيغن هو الذي يبرهن وجهة النظر هذه .

واذا اخذنا بعين الاعتبار ان بقية القوى الاخرى في اسرائيل ضعيفة ولم تحصل بمجملها الا على ٢٥ مقعدا من اصل ١٢٠ مقعد في الكنيست الاسرائيلي توزعته بين العمل والليكود وان هذه القوى في كل الحالات لا تفترق مواقفها كثيرا عن مواقف حزب العمل والليكود . لتبين لنا ان التسوية التي تريدها اسرائيل هي تسوية الاستسلام العربي الذي يتم في ظله قضم المناطق المحتلة بعد عام ١٩٦٧ خلافا لكل المقررات الدولية ودون التخلي عن اهداف اسرائيل الاخيرة، ذلك ان اي تسوية تكون خلاف ذلك تشكل ارباكا واختلالا في المشروع الصهيوني من اساسه طالما انه لم يكتمل بعد .

ان التسويات السياسية الاسرائيلية المطروحة هي تسويات عدوانية والسلم المطروح هو سلم عدواني ويكفي ان نذكر انه في ظل الاستفاضة في الحديث عن « السلم مع العرب » و « السلام العادل » تمت كل عمليات اغتصاب الارض والتنكيل بسكانها الاصليين منذ عام ١٩٤٨ حتى الان لا بل منذ بدات تتوافد اولى هجمات الصهاينة الى ارضنا القومية .

ان التسوية على الجبهة الشرقية هي اسقاط لمصداقية الايديولوجية التي تقوم عليها اسرائيل لذا لا يمكن ان تقدم المؤسسة الحاكمة في اسرائيل

على اتخاذ قرارات تناقض الايديولوجية الاسرائيلية القائلة « بيهودية الدولة » و « تكامل الارض » .

وبالتالي يبقى خياران مطروحان امام اسرائيل : خيار الحرب وخيار اللاسلم واللاحرب .

خيار الحرب : في ظل الاوضاع الدولية المعقدة فان خيار الحرب لا تقرره اسرائيل وحدها ولكنه خيار اسرائيلي مفتوح تلجأ اليه حين لا يتيح لها الخيار الآخر استكمال اغراضها .

خيار اللاحرب واللاسلم : ان اللاسلم واللاحرب هو الخيار الافضل بالنسبة لدولة اسرائيل في ظل الموازين والمعطيات التي تتيح لها تنفيذ اقامة مستوطناتها وتنفيذ عملية الافراغ التدريجي للارض كما هو الخيار الافضل للامبريالية الاميركية في ظل الموازين الدولية الراهنة .

بالنسبة لاسرائيل :

١ ـ في حالة اللاسلم واللاحرب تبقى المؤسسة الاسرائيلية وفية لاهداف المشروع الصهيوني سواء لجهة يهودية الدولة او لجهة الحلم « بالارض التاريخية » ولا ترغم على تقديم تنازلات على حساب الارض او الدولة .

٢ ـ تتمكن اسرائيل من الاستمرار في تطويق الضفة الغربية وقطاع غزة بحزام من المستعمرات باتجاه تغيير طبيعتها الديمغرافية .

٣ ـ السلم العادل يحرم اليهود من العودة والحرب الدائمة مع العرب لا تشجعهم وحالة اللاسلم واللاحرب هي الحالة الفضلى التي تساعد على تصاعد معدلات العائدين .

٤ ـ على اسرائيل ان تثبت للامبريالية انها تقدم لها خدمات او عندها القدرة على امكانيـة تقديم الخدمات كي يستمر تدفق سيـل

المساعدات المالية والعسكرية وهذا لا يمكن ان يؤمن في حالة السلم اما الحرب فغير مرغوب فيها اميركيا وحالة اللاحرب واللاسلم هي الحالة الفضلى .

لهذه الاسباب فان اسرائيل هي مع حالة اللاسلم واللاحرب ومشاريعها التسووية هي من قبيـل التكتيك السياسي القصـد منه اظهار نوايا اسرائيل الحسنة في الوصول الى السلام امام الراي العام العالمي ومراعاة رغبة واشنطن في عدم قطع الطريق سلفا على دورها التسووي علما ان هذه التسويات تصب مضمونا في خدمة المشروع الصهيوني .

بالنسبة للولايات المتحدة :

الولايات المتحدة الامريكية هي بدورها مع تجميد النزاع مرحليا عند حدود اللاسلم واللاحرب بجملة من الاسباب :

١ ــ ان السلام ينهي دور اسرائيل العسكري كاداة تعاون الامبريالية في عمليـة الهيمنة على منطقة الشرق الاوسط والعـالم العربي ونظرا لكون الشرق الاوسط عرضة لثورات وتقلبات لا ترضي الامبريالية الامريكية فمن المهم ان تستمر حالة اللاسلم واللاحرب لتبقى المؤسسة العسكرية الاسرائيلية جاهزة للتدخل وفقا للمصالح الامبريالية وفي ادنى الحالات لاستخدامها كعصا غليظة يتم التهويل بها للجم التحركات والانتفاضات الشعبيـة وجر الانظمـة الى مزيد من التنازلات لصالح اسرائيـل والامبريالية .

٢ ــ بقاء حالة اللاسلم واللاحرب مع الاكثار من الطروحات التسووية ولو انها استسلامية في المضمون يبقي العرب مرتهنين للادارة الامريكية وواضعين ولو بنسب مختلفة اوراقهم في سلتها لعلا بحل منشود .

٣ ــ بقدر ما يهم الولايات المتحدة ان تبقى اسرائيل اداة للهيمنة يهمها ايضا ان لا يصبح دور اسرائيل العسكري مهددا لبنيات الانظمـة[1]

الصديقة للامبريالية الامريكية ابتداء من الاردن ولبنان مرورا بالسعودية والخليج ووصولا الى المغرب وحالة اللاحرب واللاسلم خير ما يخدم هذا الاتجاه الاستراتيجي .

٤ ـ ان التسوية ان لم تكن استسلاما كاملا تربك اسرائيل فضلا عن ان الاستسلام العربي يعني فقدان اميركا لاي حليف عربي .

٥ ـ ان اللاسلم واللاحرب هي الحالة التي تتيح للولايات المتحدة ان تبتز الرساميل العربية وتنهب الموارد وأن تبيع فوائض السلاح فيما لا يعود على مصالح العرب الاساسية في مواجهة الخطة الصهيونية بأي فائـدة .

يتبين مما سبق انه ليس من مصلحة الولايات المتحدة الامريكية انجاز اي تسوية عادلة وهذا ما يبرر ويفسر دوما تبنيها للمنهج الاسرائيلي وتنصلها من مواقفها لصالح الموقف الاسرائيلي عند حصول اي نزاع بين الطرفين .

ان ما يهم الولايات المتحـدة ليس التسوية بل حسن اداء الشق الامبريالي من المشروع الصهيوني بدوره في خدمة الامبريالية العالمية ولهذا فان مجمل السياسة الامريكية تجاه اسرائيـل تتلخص في الحفاظ على تفوقها العسكري وهذا ما التزم به كل رؤساء جمهورية امريكا ومؤخرا ريغن في رسالة منه لبيغن اثر الحديث عن صفقة اسلحة للاردن ازعجت اسرائيل اكد فيها ريغن حرص امريكا على « تفوق اسرائيل النوعي » .

وبناء عليه فان اسرائيل تستفيد من أهمية دورها العسكري بالنسبة للامبريالية لاكمال انجاز مشروعها الصهيوني وانه ليس من مصلحتها الموافقة على اي تسوية قبل انجاز مشروعها طالما انها المتفوقة وان لا أحد له القدرة لارغامها على التنازل . وتحت طبقة الثرثرة والضجيج حول الطروحات العادلة او غير العادلة والمبادرات السلمية او الاستسلامية والتي شارك في عرضها امريكا واوروبا واسرائيل وكثير من الانظمـة

العربية تستمر اسرائيل في القضم والهضم وفق برامج واضحة وصريحة ومستهدفة .

ومن اطلاعنا على مجريات الاوضاع في اسرائيل يتاكد لنا هذا المنحى والمنهج العــام .

ففي عام ١٩٦٧ ضمت اسرائيل مساحات شاسعة من الاراضي وتحت ستار القبول بقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذي نص على انسحابها من « الاراضي » او « اراضي » احتلت عام ١٩٦٧ ، شرعت اسرائيل بقضم الاراضي وبناء المستوطنات ورغم الهزة التي لحقت بالكيان الصهيوني في حرب ١٩٧٣ فان اسرائيل تمكنت من تحويل الهزيمة الى نصر سياسي حيث انها جرّت مصر الى حل ثنائي معها وعزلهـا عن العالم العربي واكملت مسيرتها في عملية القضم والهضم وعند وصول مناحيم بيغن وتجمع الليكود الى السلطة عام ١٩٧٧ كان قد اصبح عدد المستوطنات التي بنيت في الاراضي المحتلـة يناهز ٢٤ مستوطنة . وانتصار بيغن ووصوله الى الحكم وهو الذي يرفع شعار « ارض اسرائيل كاملة » هو مؤشر على اتجاه الراي العام الأسرائيلي نحو المزيد من التصلب ومنذ وصول مناحيم بيغن الى السلطـة ادلى في اول تصريح لــه الى مجلة نيوزويك الامريكية : « اننا سنوضح للرئيس كارتر ان العودة الى حدود ١٩٦٧ يشكل ثقلا لنا » . اما برنامج الحكومة الاولى التي شكلها فنص في خطوطه العامة على السـيادة الاسرائيلية بين البحر والاردن وان « ارض اسرائيل » للشعب اليهودي وليس لمنظمة التحرير الفلسطينية كما نص على « حق الاستيطان في كافة انحاء ارض اسرائيل » ، من خلال الحرص على عدم سلب اي شخص ارضه . لكنه سلب آلاف الدونمات من اصحاب سكان الارض الاصليين . وبين الفترة الممتدة من تشكيل حكومة بيغن الاولى وحكومته الثانية الجديدة تضاعف عدد المستوطنات الاسرائيلية عما كان عليه مرتين واستولت اسرائيل على ما يقارب ٣٠٪ من اراضي الضفة الغربية .

ان اسرائيل ماضية في مخططها الرامي الى تغيير الطبيعة الديمغرافية للضفةالغربية وتطبيق السيادةالاسرائيلية عليها عبر زيادةعدد المستوطنات وتهجير ما امكن من السكان الاصليين وما كان ينظر اليه من قبل البعض على انه محال بدا يحتل مركزه على ارض الواقع وحاليا فان الضفة الغربيـة مطوقة بمجموعة من المستوطنات ومخروقة بمجموعات اخرى بشكل يبعثرها الى كتل يستحيل معها المطالبة بسيادة دولة فلسطينية عليها في المستقبل وتكمل الحكومة الاسرائيلية الجديدة عملية القضم والهضم وينص برنامجها الذي يتكامل مع برنامج الحكومة الاولى على الامور الاساسية التالية :

١ ــ الادراك بوحدة المصير والنضال المشترك من أجل وجود الشعب اليهودي في ارض اسرائيل .

٢ ــ ان الاستيطان في ارض اسرائيل هو حق وجزء لا يتجزأ من أمن الامة وستعمل الحكومة لتعزيزه وتطويره وتوسيعه .

٣ ــ ستعمل الحكومة لاستئناف المفاوضات بشأن الحكم الذاتي الكامل للعرب في يهوذا والسامرة وقطاع غزة . وان الحكم الذاتي لا يعني السيادة ولا حق تقرير المصير ، وترتيبات الحكم الذاتي التي تحددت في كمب دايفيد هي الضمان لعدم قيام دولة فلسطينية في ارض اسرائيل في اي ظرف .

٤ ــ لن تهبط اسرائيل من هضبة الجولان ولن تزيل اية مستوطنة اقيمت هناك ، الحكومة هي التي ستقرر التوقيت الملائم لاحلال قانون الدولة وقضائها وادارتها على هضبة الجولان .

وتبدأ حكومة بيغن تنفيذ هذا البرنامج نقطة بعد نقطة وبندا وراء بند تحت غطاء كثيف من سحب الاحاديث والتصاريح عن السلم والحلول العادلة ، تكمل بناء المستوطنات في « ارض اسرائيل » وتحرك مفاوضات

الحكم الذاتي مع مصر وتحل قانون الدولة وقضاءها وادارتها على هضبة الجولان . وهكذا تنفذ الحكومة الاسرائيلية برنامجها على اكمل وجه ضاربة بعرض الحائط كل القرارات والمواثيق والاتفاقات الدولية ، وضم الضفة الغربية الذي يبدو بعيداً الآن سيصبح قريبا بعد حين .

الحكومة الاسرائيلية تنفذ برنامجها ، وبرنامجها هو تجسيد لمشروع بيغن (الذي لا يختلف في الجوهر مع بقية المشاريع الاسرائيلية) ومشروع بيغن يتلاقى مع اهداف المشروع الصهيوني العليا كما سبق واوضحنا وهكذا تتنامى « لبنة اسرائيل » في سياق متكامل من النهج والممارسة في وسط من الضياع العربي والعجز العربي والترهل العربي .

يبقى السؤال الوحيد المطروح : ماهية التسوية المنفردة مع مصر على ضوء استهدافات المشروع الصهيوني ؟

ان معاهدة كمب دايفد تضمنت اتفاقيتين واحدة تتعلق بالصلح مع اسرائيل والثانية بالحكم الذاتي بالفلسطينيين :

١ ـ الاتفاقية الاولى لحظت بعض الانسحابات من سيناء لقاء عزل مصر ، وعزل مصر هو الهدف الاساسي من معاهدة كمب دايفد . وهذا ما لا يتعارض مع المشاريع التسووية الاسرائيلية المطروحة خاصة وان اسرائيل سبق وانسحبت من سيناء عام ١٩٥٦ وعادت واحتلتها عــام ١٩٦٧ وفي ظل وجود قوات الحلف الاطلسي الحليفة لاميركا وعدم حرية تواجد الجيش المصري فوق ارضها يجعل سيناء تعتبر بحكم الخاضعة للهيمنة الاسرائيلية ولا شيء يمنع كما حصل في عام ١٩٧٣ من احتلالها مجدداً عندما تسمح الظروف الدولية او تكتسب اسرائيل المناعة اللازمة بعد نضوج مشروعها على الجبهة الشرقية .

٢ ـ اما الاتفاقية الثانية المتعلقة بالحكم الذاتي فان اسرائيل بعد عزل مصر واخراجها من المعركة تطبقها تبعا لفهمها الخاص الذي يرتكز على ما يلي :

أ ــ ان الحكم الذاتي يتناول السكان وليس الارض .

ب ــ انه لا يحول دون استمرار اقامة المستوطنات ولا دون بقاء قوات الاحتلال الاسرائيلي في هذه المناطق .

جـ ــ ان صلاحيات الحكم الذاتي تعتبر ادارية بحيث لا تشمل قضايا « الامن » والدفاع والامور الخارجية والاقتصاد التي تبقى في عهدة اسرائيل .

د ــ ان الحكم الذاتي لا يمكن ان يؤدي الى ولادة دولة فلسطينية او ارادة سياسية فلسطينية خاصة .

(وهذا الحكم الذاتي الذي لا يحول دون اقامة المستوطنات ويبقي على قوات الاحتلال وسيادة اسرائيل هو تطبيق للمشاريع التسووية الاسرائيلية ويصب في خدمتها .)

بناء عليه يتضح انه اذا كانت التسوية على الجبهة المصرية تطلبت بعض الانسحابات الاسرائيلية فان التسوية على الجبهة الشرقية لن تكون الا بتفتيتها وتثبيت « السيادة » الاسرائيلية على « الاراضي المحتلة » منها ابتداء من القدس الى الجولان ، الى الضفة الغربية وقطاع غزة . وحكومة بيغن بعد ضم القدس والجولان تخلق حاليا « روابط القرى » التي تضم المدنيين في الضفة والقطاع ليمارسوا في المستقبل القريب سلطات الحكم الذاتي حسب المفهوم الاسرائيلي .

خلاصة البحث ان الولايات المتحدة هي دوما مع « اسرائيل المتفوقة» واسرائيل المتفوقة لن تقبل بالتخلي عن الارض بل تريد ان تضع العرب امام استراتيجية واحدة هي استراتيجية الاستسلام . اما العرب فهم امام خيارين :

خيار الموت التدريجي البطيء من خلال استمرار التعاطي مع التسويات الاسرائيلية وبالتالي التخلي عن الحق القومي في فلسطين من ضمن القبول بحق اسرائيل بالتوسع فترة بعد فترة وبقائها عصا غليظة تهيمن على العالم العربي وتحمي مصالح الدول الامبريالية في نهب خيراتنا ومواردنا.

او خيار الحياة بايقاف مسلسل التخاذل والتنازل والعجز للنهوض بمسؤوليات الحياة في حشد الطاقات والتعبئة الشعبية والحضارية والثقافية للانتصار في معركة المصير المفروضة علينا .

★ ★ ★

التسوية مشروعاً تاريخياً للامبريالية والصهيونية

د. أسامة فاخوري

التسوية لا تعني سوى زرع الكيان الصهيوني في الارض العربية ثم اجراء الصلح بين هذا الكيان والعرب . وزرع الكيان الصهيوني في قلب الامة العربية ساهمت فيه بريطانيا مساهمة فعالة وكان القصد منه تحقيق عدد من الاهداف :

١ ـ تحقيق هدف التجزئة بغرس جسم غريب في ارض هـذه الامة لبقائها ضعيفة .

٢ ـ الهاء العرب بالنزاع مع هـذا الجسـم الغريب عن مقارعة الاستعمار ولا سيما الاستعمار البريطاني الذي كان جاثما على صـدر مصر آنذاك والعراق .

٣ ـ ضمان سلامة الطريق التجارية البريطانية بين مصر والهند .

٤ ـ التخلص من خطر اليهود في بريطانيا بخلق وطن لهم يأوون اليه بعـد أن حملهم اضطهاد روسيا القيصرية على الهجـرة الى بريطانيا وسواها .

٥ ـ ضمان السوق العربية سوقا استهلاكية للمنتوجات البريطانية ولاستثمار الرأس المال الاميركي والبريطاني والفرنسي . .

٦ ـ وضع اليد على المواد الاولية ولا سيما على البترول المكتشف حديثا بالنظر لأهميته الاستراتيجية على تسيير عجلات الصناعة والآلات الحربية .

وهكذا ارتبطت التجزئة ، اداة للاستغلال الاقتصادي بانشاء الكيان الصهيوني في فلسطين ، وأول مشروع تجزئة بعد الحرب العالمية الاولى كانت اتفاقية سايكس ـ بيكو في ١٩١٧/٥/١٦ وقد مهد لهذه الاتفاقية باتفاقية ٢٦ نيسان ١٩١٦ .

اتفاقية ٢٦ نيسان ١٩١٦ :

كانت هذه الاتفاقية (أي اتفاقية ٢٦ نيسان) اساسية وعلى جانب كبير من الاهمية لانهـا تميزت بالتفاهم بين الحلفاء على اقتسام كامل الامبراطورية العثمانية من جهة وعلى تخصيص انكلترا وفرنسا بالاستيلاء

على الولايات العربية من جهة اخرى ، ما سيرتب عليه لاحقا توقيع اتفاق سايكس ــ بيكو بينهما تطبيقــا للمبادىء المقررة في اتفاق ٢٦ نيسـان المذكور . وبموجب هذه الاتفاقية التي اتخذت شكل المذكرات المتبادلة تم التفاهم بين انكلترا وفرنسا وروسيا على ما يلي :

١ ــ تعود الى روسيا ولايات ارضروم وطرابزون وفان وبيتليس في شرق الاناضول والمتاخمة لحدود القوقاس وهي ولايات ارمنية .

٢ ــ وتكون من نصيب فرنسا سوريا الجغرافية بكاملها بما فيها فلسطين ولبنان وكيليكيا في الشمال مع ولايتي خربوط والموصل من جهة الشرق .

٣ ــ تحتفظ بريطانيا بالعراق ولا سيما بولايتي البصرة وبغداد مع اضافة مرفاي حيفـا وعكا في فلسطين الى حصتها ليتوليا دور المنفذ للعراق على البحر المتوسط .

٤ ــ اما ما تبقى من الشرق العربي ، فقد تم الاتفاق على جعله دولة عربية موحدة او اتحادا من الدول العربية على ان يمتد نفوذ فرنسا اليها من جهة الغرب ونفوذ انكلترا من جهة العراق .

(الوسيط في القانون الدستوري اللبناني ــ د . ادمـون رباط ــ ص ٢٦٢) .

اتفاقية سايكس ــ بيكو :

ان اتفاقية ٢٦ نيسـان ١٩١٦ قررت المبادىء العامة لتقسيم المنطقة العربية بين بريطانيا وفرنسا والتي كرستها اتفاقية سايكس ــ بيكـو بتاريخ ١٦ ايار من سنة ١٩١٦ .

وقد وزعت هذه الاتفاقية (اي اتفاقية سايكس ــ بيكو) الولايات العربية المنوي نزعها عن الدولة العثمانية الى خمس مناطق :

١ ــ منطقة وصفت بالمنطقة الزرقاء وهي موضوعة تحت حكم فرنسا المباشر وتشمل ساحل سوريا وجبل لبنان القديم ابتداء مــن صور في الجنوب الى شمالي كيليكيا في جبال طوروس مع قسم كبير من ولايات الفرات ومنها ديار بكر وخربوط والموصل حتى سيفاس في الشرق .

٢ ــ منطقة حمراء واقعة مباشرة تحت الحكم البريطاني وتضم من العراق كامل ولاية البصرة وشط العرب الى شمال بغداد .

٣ ــ منطقة سمراء اشتملت على كامل ارض فلسطين لتصبح منطقة مدولة وذلك قبل صدور وعد بلفور .

٤ ــ منطقة تضم ولايات دمشق وحلب والموصل توضع تحت نفوذ فرنسا .

٥ ــ منطقة تضم ماتبقى من فلسطين حتى العقبة على البحر الاحمر جنوبا لتوضع تحت نفوذ بريطانيا .

(الوسيط ــ نفس المصدر ــ رباط ــ ص ٢٦٣ ــ ٢٦٤)

وهذه الاتفاقية ــ اي اتفاقية سايكس ــ بيكو ــ كانت سرية لم يعلم بها العرب وظلت كذلك حتى اندلعت نيران ثورة اكتوبر الكبرى الاشتراكية وكشفت هذه الاتفاقية بل بالاحرى فضحتها .

وقد انتهى تقسيم المنطقة العربية في عصبة الامم بأن وضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، والعراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني . ووضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني اعطى الصهيونية الفرصة الذهبية لتحقيق حلمها في فلسطين بالعودة الى « أرض الميعاد » واقامة دولتها فيها .

وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ :

قبل انتزاع وعد بلفور ، لجات قبلا الصهيونية العالمية بقيادة هرتزل الى السلطان عبد الحميد لتحصل منه على وعد بوطن قومي في فلسطين يحقق لها حلمها . وقد عرضت على السلطان عبد الحميد ان تدفع له جميع ديون السلطنة ، وكانت ديونا باهظة تعد بملايين الليرات الذهبية، كما عرضت عليه شخصيا مبالغ كبيرة من الليرات الذهبية لكي يوافقها على تحقيق مشروعها هذا .

غير ان السلطان عبد الحميد رفض جميع هذه الاغراءات بالرغم من زيارة زعماء الصهيونية الى استنابول مرارا وتكرارا والحاحهم واصرارهم على مطلبهم ، بالرغم من كل ذلك ، ظل السلطان عبد الحميد صلبا وصامدا امام جميع هذه الاغراءات التي كان بأمس الحاجة اليها سواء في ذلك حاجة السلطنة ام حاجته الشخصية .

وحين يئست الصهيونية من الحصول على مطلبها ، قررت اسقاط السلطان وتمزيق السلطنة ، وقد توافق اهدافها بتمزيق السلطنة مع هدف الاستعمار والامبريالية انذاك ، فكانت الاتفاقيات السرية ومنها اتفاقيتي ٢٦ نيسان ١٩١٦ وسايكس ـ بيكو التي قسمت ليس المنطقة العربية فقط وانما تركيا أيضا ، غير ان مصطفى كمال انقذ تركيا من التقسيم وتطبيق الاتفاقيات ولم يتح للمنطقة العربية بطل وطني مثله يستطيع ان ينقذها من التقسيم والتجزئة وتحقيق وعد بلفور .

بعد أن يئست الصهيونية العالمية من السلطان عبد الحميد ، صبت جميع جهودها في بريطانيا ونالت منها وعدا لا نزال نعاني نتائجه لغاية الآن وهو مايسمى بوعد بلفور ، نسبة الى اللورد بلفور ، وزير خارجية بريطانيا، في حكومة لويد جورج، الذي وجه كتابا الى ادموند دي روتشيلد تاريخ ١٩١٧/١١/٢ هذا نصه :

« يسرني جدا ان ابلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملكة ، انها تنظر بالارتياح الى المشروع ، الذي يراد به ان ينشأ في فلسطين وطن قومي لشعب اليهود وستبذل جميع مساعيها لادراك هذا الهدف ، مع العلم بأنه سوف لايسمح باجراء شيء من شأنه ان يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية ، التي تتمتع بها الجماعات غير اليهودية الموجودة الآن في فلسطين او الحقوق والاوضاع السياسية التي يتمتع بها اليهود في كل بلد آخر ».

(الوسيط ـ المصدر السابق ـ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦)

لقد حولت الصهيونية هذا التصريح الى واقع سنة ١٩٤٨ بمعاونة ومؤازرة بريطانيا واميركا وسواهما وتخاذل القيادات العربية ، واقامت دولتها على ارض فلسطين باعتراف الجمعية العامة للامم المتحدة بها .

واليوم مطلوب تسوية عربية ، اي تصفية عربية للقضية الفلسطينية، بعد هذه التسوية الامبريالية الصهيونية الدولية . وقبول العرب بالتسوية يعني رضوخهم لهذا المشروع المثلث الابعاد ، هذا المشروع التاريخي الذي استهدف التجزئة القومية لحماية المصالح الامبريالية ولإقامة شرطي في المنطقة العربية ، في ارض فلسطين ، يتعاون مع التجزئة على حماية هذه المصالح وعلى حماية نفسه وضمان استمرار بقائه .

من هنا ، يتضح لنا بصورة جلية ان الانتصار على التجزئة القومية هو الخطوة الاولى الجدية نحو تحرير فلسطين وهذا الانتصار لن يتم بالشعارات ولا بالحماس المصطنع ولابتبادل التهم والتلهي بقضايا جانبية او بافتعال الخلافات لتبرير الانصراف عن التحرير ، بل يتم بالاتحاد والتوحيد وحرب التحرير لان التجزئة هي اكثر خطرا علينا من اسرائيل نفسها ، لأن التجزئة هي عون لاسرائيل علينا ، ما يجعل اسرائيل بالنتيجة عون للتجزئة علينا وابقائنا ضعفاء متخلفين .

بيروت في ١٩٨٢/٣/١

يصدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



شعر

تجليات

علي سليمان

أمس ،
عاينت وجه الإله .
تجلى بجسم من الفجر
ثم تجلى بجسم من النار
ثم تجلى بجسم من الليل .
تجلى . . . !

فغيبني في الشعاع
وغيبني في العذوبة
غيبني في القساوة

غيبني . . .
ثم أظهرني راكعاً في الحضور
المكثف .

أظهرني عارياً
في رغابي
وأظهرني عارياً
بانتفاء الرغاب . .

أظهرني راكضاً
في اندحاري
وأظهرني راكضاً
في دروب الإياب .

قادني في شعاب السماوات
في حقول من الصحو
والسكر . .

في ساحل أخضر الرمل
والشوق واللهث . . والاغنيات .

في دروب لها نكهة الامتلاك
لها نكهة الفجر
في شفة الأفق

أدخلني في الطفولة
أدخلني في الخصوبة . .

أوصلني سدرة الاتصالْ
أوصلني سدرة المنتهى . .
قادني في الخفيّ
الخفي . .
قادني في غموض الوضوح
في وضوح الغموض

خاطبني :
أنت ، بعد رحيلك فيَّ
ستدرك ما جهل الآخرون

ستمضي اتساعاً
وتمضي امتلاءً
وتمضي حضوراً
وتمضي اشتعالاً . .

بعد أن نمت ، في ظل
ضوئي .
وفي ظل رائحتي
سيبدو لك الأمس
ينكشف الأفق

ترى داخل البحر
ترى مهجة الريح
والرمل . .

ترى الغد والأمس
واليوم
ترى في عروق الظلام .

بعد امتزاجك في
شفقي
ستغدو شفاهك
حقلاً
وكفك نهراً .

وعيناك : نافذة الله
تفتح نحو الزمان
وتُفتح في جسد الكون
ترأب صدع المكان !

بعد امتزاجك ، في نكهتي
ستملك سرّ العذوبة
سرّ التوهج
سر التفتح
سر النمو . . .

كلُّ الكلام يَشع ، يبوح
بأسراره ،
كل اللغات
وكل المدارات ،
تصبح ساقيةً
وكل الشعاب
تلقي نهاياتها وأسرارها
في مصبكَ . . .

أمس أوقد فيَّ
اشتعال دم الكون
أسرى بعينيَّ ، نحو
مصب الضياء

أبصرني كل خاف
سافر بي في البدايات
سافر بي في النهايات

تحولت في ضوئه
وفي ثوبه
عالماً . .

ارتديت المصبّات
ارتديت مصب الزمان
حملت البدايات
مضغة الكون .

أمس خاطبني ،
قال لي اقرأ :
فقرأت جميع اللغات

اقرأ :

فقرأت الملامح والصوت
والنبض والهجس
قال ليَ ابْصُرْ :
فأبصرت في داخل الحلم
في داخل الهجس
في داخل الصمت
ابْصرْ :
فأبْصرت ما في السرائر

أبصرت كيف الأجنة
تنمو وتجري بأوعية الخلق
كيف البدايات تبدأ

كيف البدايات تمضي
إلى نقطة الانتهاء . .

أبصرت :

كيف الفصول تدّب
بأوردة الكون
والعقم يجلس في ظلمة
البرد
كيف الخصوبة توقد أهواءها
في عروق الشتاء . .

أمس خاطبني :
وألبسني المستحيل .
ألبسني جسد الأرض
ألبسني جسد الماء
ألبسني منبع الليل
ألبسني الطرقات . .
ألبسني ضوءه ،
فأبصرتُ كل الجهات

ألبسني وهجه ،
فأبصرت كل الدروب .
ألبسني طعمه .
فقهرت المجاعات .
ألبسني سره .
فأبصرت مالا يُرى .
ألبسني ثوبه
فغدوت (. . . .)

حين ألبسني وهجه
أفقت على البحر يسكن
نافذتي .
أفقت على الأفق
يدخل في معطفي .
أفقت على الغيم
يجري خلالي .
أفقت على الأمس .
واليوم الغد
تجري بأوردتي .

قَدِمْتُ :
فضَاق عليّ الزمان
اتسعت فضاق عليَّ
المكان . . !

حين غيبني
في الرحيل
وقفتُ على هوة
الإنطفاء

سكنت مع الجزر
سكنت مع الإنحسار
نمت في بذرة الأمس
في بذرة البدء .
نمت في بذرة الصبوات
نمت في مضغة الشوق
والانتظار . .
سكنت صدوع
المكان
سكنت صدوع
الزمان

غادرني الضوء

والصحو . .

غادرني الأفق

والوقت . .

غادرني العمق

والإتساع

استقريت في رحم

الليل . .

تهتُ . .

تصدعت . . ضقت

امحيت . . .

انتشرت بسر الرماد

انتظرتُ انتظرت

انتظرت

على شرفة الموت

والليل

نسرَ الضياء . .

شعر

حرٌّ كالريح

علي الفزّاني
بنغازي

حر كالريح استعارة من اسم لوحة ايطالية ، وضع فيها الفنان كل معاني الحد دون رتوش ، او ايحاء خارجي .

النار تزفر في المخابىء . والبنودُ : كما الرماح .
مغروسة في العمق . هبّي ، ياريارح
دوري هنا :
بقع الدماء على الأديم على الصخور
بذرُ الشهادة . تبتغي ، الآن النشور
يتفتح الأمسُ البعيدُ على غمام من نسور
ويطل « عقبة » من ثراه على السحاب ،

متسائلاً : والنسر يمرح في حبور :
هذا دمي — لا الرعد يومىء في الرمال وفي الشعور
ألقاً من الثارات منبجس اللظى ، ملأ الأثير
إني أرى أمماً ، وأفواجاً تهبُ إلى الحياة
تمشي على بُسُط الذي صنع اللهيب من الصدور
هذي سماؤك ياصغير
ملأى بأحلام الطفولة والربيع
الصافنات ، العاديات ، من الحديد
مطر من اللهب المخبأ في تلافيف العصور
هذا أبو الفلوات ، والمدّ الكبير
شيخ ، تنكر للسنين ، وللسقام ، وللقصور
مأواه كهف والرصاصة في الجراب مع البذور
يغفو على جوع لكي يصل السفين إلى المصير
أثرُ السجود — من اليقين — على الجبين .
هذا تراث الكادحين — إذا السنون
طَمَسَتْ رؤى ، نطق المراد بما يكون
ولربّما تغفو الحروف . . ويصمت الهمس الحنون
صمت النبيّ على العظيم من الأمور .
حتى إذا ولج النفير من الحلوق إلى الجموع
هرع النجيع إلى النفاذ من السكون بلا رجوع .

* * *

اليوم أمرٌ . ها — لقد فرغ الدّنان من الشراب .
وتفرق السمار عني . والجنوب غدا طريق .
صحو : أشد على الفؤاد من المخاض بلا ولادة .
شعب تمرّغ في العذاب وصائدوه . .
أبناؤه — عجبا أرى ، شدّ الوليد على أبيه
هذا قرار الموت — أفّ للبكاء . . وللدموع
أنا لنرفض أن يراق دم الشقيق على الحدود
هدَراً كما يجني الوليدُ على أبيه
ماذا يريد الغرب منا من نوال ؟
« باريس » تحلم . والضحى أمسى زوالْ
السلم يصنع بالبنادق والنسور —
وبالرجال .

مرحى — إذا عاد الصليبُ إلى النزّال .
شدوا إذاً ظعنَ الرحيل إلى الصحارى
لم لاتصير رمالهن مقابراً ؟ من يمنع الاحرارا ؟
مدّي يداً « أفريقيا » تلقين أيدي لم تعد أصفاراً
أنا لندرك ماوراء عيونهم . فتذكري أنهاراً . .
تجري . . وتحمل للمدى أسراراً

* * *

بيني وبين الأمس نهر مبتغاه
مدن الدّمَا صحوٌ ، وفعل في دجاه
يتعثر التاريخ طوراً ، كالكسيح .

وتلوح في مثواه أسمال المسيح
رؤيا تمزق كل ستر . والمدى فيها سحيق
لا بدّ للملاح من ليل اغتراب
متوجساً أبَدَ الذي يأتي وقد حجب الضباب
عني وعن رؤياه في الحلك المريب . .
دنيا تماوج في سماها ما يكون ولا يكون
ان الخلاص ، إلى الخلاص ، بلا ضحايا . .
وهم ، إذا فرغ الطريق من الرزايا
لا فجر والأحرار قد سقطوا ، وأوثان الخيانة
تلقى على الأحداث ، من عُفَنَ الإهانة
وما يبقى ، لِغَبَبُ الوباء من البثور على الجباه
ارثٌ تمخض عن هاث ، وارتعاش
متآكل الأعماق ، ميِّتٌ ، أو رميم .
ماذا أجيبُ غداً ، إذا فتحوا الكتاب ، وايقظوني من رقاد ؟
ألم الخيانة لا حق حتى الرموس
وأكاد أسمع في الحياة عن القيامة والحساب . .
وقع الخطى — أزف العقاب .
هذي جريمتك التي خلف الستّار . .
حيكت ، كنسج العنكبوت تمددتْ عبر القرون .
رهط من التيجان تمتلك البرايا
جيل من الأخشاب ينظر في المرايا
أني لأخجل أن أموت بلاصراع . .
موت الغريب بلا زناد أو متاع . .

شعر

الشوكة

ابراهيم نصرالله
عمان

بين حمى العتابِ ،
وعصفورة الاعتذار الخجولةِ
شاغلْتني زمناً
واتكأتَ على الجرح
كي تطعنَ في شرفتي
وافتعلتَ القصيدةَ
حينَ اعتذرتَ
فأرجعتَ لي – خلسة – جثتي

■ ■ ■

كنتُ مذ لوحتني القصيدةُ
اسألها عن يديَّ
فتمنحني الأرضَ
حتى عبرتَ دمي طعنةٌ
واستلبتَ البراءة
من لونهِ
والطيورَ الأليفةَ
من حزنهِ

■ ■ ■

كنتُ مذ لوحتني القصيدةُ
امنحها ساعدي
كي أرى اليومَ أجملَ
والحلمَ أصفى (أيا أيها الظلُ
هل لامستكَ الرمالُ
وفاجأكَ الجمرُ صيفا

■ ■ ■

قبلَ أن أبسطَ اليومَ
في راحةِ الحلمِ
يبسطني الحقلُ
في راحةِ السنبله .

هكذا كنتُ أدخلُ للبحرِ
من صحوةِ الدمِ
من شارعٍ في المخيمِ
تلعقهُ المقصلهْ
وارى ما يرى الظامِئْ
في حالة الزلزلهْ
وفلسطين تحضرني موجة
ثم تسكنني إمرأة ناحلهْ
فلماذا توغلتَ في عثرات الغشاوة
عمراً ! !
ولم تمنح الأرض وقتاً
لتزهرَ مابيننا
لنرى أينا
خذلته الرؤى حينما لامس الدمَ
والتربةَ القاحلة

— — —

كنت أخرجُ من قلبِ أمي إليكْ
صافياً كالبراءةِ
واليومُ مابيننا واحدٌ
أنتَ قسمتهُ فاختلفنا

والقصائدُ ماييننا وجهةٌ
أنتَ أغلقتها فافترقنا
كنتُ أخرج من قلب أمي إليكَ
واودعها وجهكَ المتعبا
النارَ والكوكبا
فتحملّني عشبها ليدينا
« وزرقاءها » للقصيدة
مرتْ بنا مدنُ الأرضِ
واحدةً واحده
واختلفنا هنا مرةً ثانية
قلت : نبدأ من جرحنا كاملاً
لتكونَ الحقول وأمي الوحيده
فامتشقتَ القصيدةَ
طاردتني في المطاراتِ
والأصدقاءِ المحبين
طاردتني في اخضراري
الحزين
وأسقطتَ أحرف إسميَ من شجرِ
العائله
وأسقطته من كشوفِ المخيمِ والبحرِ

والصحوِ
طاردتني مثلما المخبرين !

■ ■ ■

كنتُ أعبرُ من جسدي للأغاني
وأسميه غزةَ
هل من رآني
ونسقَ فيَّ العصافيرَ
حتى أقاسمها ساعدي
وأعيدُ لها البحرَ
أو نتبادلُ أدوارنا
فتقاسمني ساعدي
وتعيدُ ليَ البحرَ
أو نتبادلُ أدوارنا

■ ■ ■

دخلتْ موجةُ البحرِ صوتيَ
هل عرفتني يداها
فهدهدني تعبي
أم رأتْ جبهتي الريحُ
فاقتلعتْ مقصلهْ . .
حينُ مرتْ بنا مدنُ الأرضِ

قاتلةً .. قاتله

كانَ لما يزلْ فيكَ ألفةُ وجهٍ بعيدٍ من

السابله

فاعتذرتَ

فاعتذرتَ

وبالغتَ في الاقترابِ

دخلتَ إلى الشمس في غرفتي

وما بين حمى « العتاب »

وعصفورة « الاعتذار » الخجوله

أرجعت لي — خلسة — جثتي

قصة

في قلب الساحة

نيروز مالك

يتفرغ شارع الشهباء في نهايتـه الى فرعـين ينتهيان بساحة صغيرة يقوم امامهما مبنى قديم ، وفي واجهة المبنى، حانوتان بائسان ، بينهما فسحة حجرية ، ثبتت عليها لوحة رخامية ، حفر عليها المعلومات التالية : بسم الله الرحمـن الرحيم « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا ، بل احياء عند ربهم يرزقون » ، صدق الله العظيم .

هنـا صـرع رصاص الاستعمار الفرنسـي الطالبـين الشهيدين :

عمر عبد القادر	عبد المجيد حبيب
١٩٤٣/١٩٢٨	١٩٤٣/١٩٢٥

وعلى يمين اللوحة الرخامية حانوت لتصليح الدراجات ، ولبيع القديم منها ، أما على يسارها ، فمكتبة صغيرة لبيع الدفاتر والأقلام ، وما يحتاجه الطالب في حياته المدرسية ، لقد طالعني هذا المشهد طوال سنوات دراستي الإبتدائية ، وقد قرأت المعلومات المحفورة على اللوحة الرخامية البيضاء مرات ومرات . كما أنني اشتريت من المكتبة الصغيرة كثيراً من الأقلام والدفاتر وأشياء أخرى . . .

نسيت أن أقول لكم ، خلال دراستي الإبتدائية ، كانت أوضاعنا المالية والمعيشية لابأس بها ، مستورة ، كما كانت والدتي تقول . فوالدي موظف من موظفي المرتبات الوسطى . أما دراستي الإعدادية ، فاستمرت ثلاث سنوات في إعدادية الشهباء . . .

خلال الصف الأول الإعدادي لم ألحظ أي تغيير في الشارع ، إلاّ أنني في نهاية العام الدراسي الثاني ، رأيت في نهاية شارع الشهباء مجموعة من المباني القديمة ، المحيطة باللوحة الرخامية البيضاء ، قد هدمت . . . ومع افتتاح المدارس في أوائل فصل الخريف وتدفق الطلاب والطالبات عبر الشارع ، نزع صاحب المكتبة الصغيرة واجهتها الزجاجية الصغيرة ، وعلق مكانها الفواكه ، كما أنه وضع مجموعة من السحاحير المملوءة بالخضار .

استغربت فعلته ، ولكنه ظل يبيع ، إلى جانب الفاكهة والخضار ، الأقلام والدفاتر والحاجات التي يحتاجها الطالب . . .

مرة أخرى ، نسيت أن أقول لكم ، عندما انتهى العام الدراسي ، رحت اسمع نغمة لم تكن واردة في بيتنا سابقاً . راحت والدتي تعزفها

لوالدي كلما سلحت لها الفرصة لذلك . وكانت هذه النغمة عن الضائقة المالية التي باتت اسرتنا تعاني منها في الآونة الأخيرة ، أما والدي ، فكان يقابل نغمتها بالصمت الذي يجيده . . . ولكني لمست في عينيه نظرة قلقة ، شاردة ، كما اني لمست في تصرفاته شيئاً من العصبية . أما انا ، فكنت استغرب وجود مثل هذه النغمة في بيتنا الذي لم يكن يشكو ، سابقاً ، من أية ضائقة مالية ، انما كانت أحوالنا دائماً ، مستورة ، كما كانت تؤكد أمي . فتساءلت قلقاً عن أسباب ذلك ، ولكن دون جدوى !

المهم ، في نهاية العام الدراسي ، وجدت المكتبة الصغيرة قد انقلبت نهائياً إلى دكان لبيع الخضار ، كما أني رأيت استمرار هدم البيوت القديمة في الشارع وارتفاع ابنية تجارية ضخمة عوضاً عنها .

أما المعلومات المحفورة على اللوحة الرخامية البيضاء ، فأصابها التلف والامحاء . . . سأعود لأحدثكم عن خروج والدي عن صمته الذي لم يعد يجيده . فراح يكرر ، ليس أمام والدتي فقط ، انما أمامنا نحن أولاده أيضاً ، معلومات جديدة ، ألا وهي أن الدراسة ، ما هي إلاّ مضيعة للوقت ! هذا الكلام كان يؤكده لنا قبل أن يؤكده لوالدتنا التي لم تملّ من عزف نغمتها التي باتت قديمة في البيت ، ألا وهي الغلاء الفاحش والراتب الذي لم يعد يفي حاجات البيت والأولاد الضرورية . وعندما كانت والدتي تسكت ، كان والدي يؤكد لها وهو يدخن سيكارته ويلتفت إلي ويحدق في عيني ، بوصفي أكبر ابنائه ، يؤكد بأن كثيراً من ابناء الموظفين الذين يعمل معهم في إدارة المؤسسة ، تركوا دراستهم ولجؤوا إلى الأعمال الحرة من تجارة وسمسرة وما شابه ذلك . فبات بعضهم اليوم من اصحاب الآلاف من الليرات !

بسكوته ، كنت أحس بشيء حديدي يعتصر قلبي ، وأنا اسأل نفسي « هل يريد بكلامه هذا أن أترك المدرسة ؟ » ، وقبل أن أجيب نفسي كان والدي يردف : « لم تعد الشهادات في هذه الأيام تطعم خبزاً ! » ومع خروجه المستمر عن صمته الذي لم يعد يجيده ، عشت في خوف دائم من أن يطلب مني أن أترك المدرسة ، وأبحث عن عمل ! المهم . . . في منتصف العام الدراسي اختفت من دكان تصليح الدراجات وبيع القديم منها ، تلك المظاهر البائسة ، ليحل مكانها مكتب للسمسرة في بيع الأراضي والمباني ، تنيره مجموعة من الأضواء وواجهة زجاجية تلقي بأنوار مشعة على اللوحة الرخامية البيضاء التي امّحت عنها المعلومات المحفورة عليها... ولم يمر شهر إلا ووجدت صفاً آخر من المباني على الطرف الأيمن من الشارع يهدمه العمال ، ليقيموا مكانه صفاً آخر من المباني الجديدة ، مبان تتلألأ واجهاتها باللوحات النيونية ، تغطي واجهات المحلات التجارية ومكاتب لبيع السيارات الجديدة الفارهة وعرض وبيع الألبسةالمستوردة من الخارج الغالية الثمن . . .

وقبيل نهاية العام الدراسي حيث كنت استعد مع الطلاب لدخول امتحانات الشهادة الإعدادية ، وجدت اختفاء سحاحير الخضار من الدكان التي كانت سابقاً مكتبة صغيرة . لتصبح دكاناً لبيع الصندويش والمعلبات والعصير . . . أما القضية التي زلزلت كياني بعد نجاحي في الشهادة الإعدادية ، فكانت عندما فاتحني والدي بضرورة تركي للمدرسة ، وقال : « لقد حصلت على الشهادة الإعدادية ، وهذه كفاية على اناس من أمثالنا ! »

وعندما وجدني أختنق بدمعي وأنا عاجز عن الرد عليه ، تابع : « ترى أوضاعنا المعيشية يا بني . . . اخوتك ما زالوا صغاراً وراتبي لم يعد يسد نفقات أبسط حاجات البيت . . . »

ثم حاول أن يرسم لي صورة عن عقم الدراسة وعدم جدواها ، قال : « كما تراني يا بني ، أنا أيضاً من أصحاب الشهادات . قل لي ماذا جنيت منها ؟ لم أجن كما ترى سوى الفقر والعوز . . . »

واختنق بدمعه . فتركني خجلاً ، وذهب إلى غرفته يغلق على نفسه الباب باحكام .

هكذا ، اضطررت إلى ترك المدرسة . . . وذات يوم ، وأنا أبحث عن العمل ، وجدت نفسي في شارع الشهباء دون قصد مني . استغربت وأنا أتلفت حولي . فلم أصدق ما آل إليه الشارع !

وعندما وصلت إلى نهايته ، إلى الساحة ، حيث يتفرع إلى فرعين ، لم أجد الحانوتين ، كما لم أجد اللوحة الرخامية البيضاء ، بل وجدت مكانهما واجهة عريضة ، تمتد من أول الحائط إلى آخره ، وباباً زجاجياً كبيراً يتلألأ بمجموعة من الثريات تلقي بأضوائها على سطوح السيارات العريضة الفارهة الجاثمة كحيوانات خرافية خلف الواجهة الكبيرة .

ظللت واقفاً أحدق في الواجهة ، وأنا أتخيل مكانها الدكاكين ، وتلك اللوحة الرخامية البيضاء . . . وبعد مضي زمن طويل ، طويل ، طويل ، أفقت ، فشعرت بشيء من الغربة تزحف إلى أعماقي . لقد اختفت كل المعالم التي أحببتها سابقاً ، تلك المعالم التي ربطتني بذكريات مرحلة من أحلى مراحل حياتي . . . فتابعت سيري ، وأنا أجبر نفسي أن لا أشغل ذهني إلاّ بقضية ما هو العمل الذي يمكنني أن أقوم به ، فأنا ليس لديّ شهادات تذكر ، ولا مهنة أجيدها ، ولا رأس مال صغير أعتمد عليه . . . فأي عمل يمكنني أن أقوم به ؟

هكذا ، وجدت نفسي أعزل من كل الأسلحة ، وأنا في قلب الساحة.

يوميات مهرجان

عن المهرجان الدولي الثاني والثلاثين للفيلم في برلين

عبد الحكيم قاسم

اكتب من الكافتيريا المخصصة كملتقى للوفود المدعوة من رجال الصحافة وصناعة الفيلم في انحاء الدنيا . المكان عابق بدخان اللفائف وروائح العرق والطعام والمشروبات . الكل آكل او شارب او مدخن او متحدث بعنف وغضب او بانفعال وفرح . هذا جهاز بشري هائل مصنوع من كل هؤلاء معا . ناس يوحدهم نسق وهدف . ناس يمثلون ثقلا هاما في هذه الدنيا . قد يحس الواحد ازاءهم بالخوف او الكراهية والعداء . قد يحس الواحد ازاءهم بالحب . ايا ماكان الامر . انهم كلهم ، بكل مذاهبهم السياسية والفنية والاجتماعية ، هم جميعا يكونون كلا واحدا باهرا وهاما . وهم يملكون على حياة كل فرد منا اثرا لايمكن الفرار منه او تجنبه

بل يجب التفاهم والتعامل معه . هؤلاء هم ناس صناعة السينما في العالم . اجلس الآن واحسبهم حولي . وجوه من كل اجناس الدنيا ومن كل الوان البشر . ملامح تحمل كل ماعرف القلب من انفعالات . احس بهم حولي بعد ان تقدم المساء وبعد ان تصرم جلّ ايام الاحتفال وبعد ان تصرم يوم مرهق من العمل . احس بهم يغالبون التعب ، ينفضونه من على الملامح ومن على الكلمات ليحتفظوا بفعاليتهم في الاوج حتى النهاية . هذا الاحساس يضع في قلبي لونا من الرثاء والحب . هل يوجد اجمل من انسان يعمل بكل مافي عروقه وقلبه من انفعال وحماس ؟

* * *

مهرجان برلين الدولي للفيلم يمثل بالنسبة الى تجربة شخصية خاصة . وقبل اسابيع كانت برلين غارقة تحت احمال الثلج الذي تراكم في الشوارع واتسخ حتى اصبح شيئاً قبيحا يثقل على قلوب الناس بالضيق والبرد . الناس تنصت كل مساء الى المذيع ، يرونه على شاشة المرناة يقف مهذبا خجلا امام الخرائط يشير اليها بعصاته ويتنبأ بحالة الجو معتذرا عن كل ما يعانيه الناس كأنما هو مسئول عن تصاريف البرودة والدفء . لكنه في ذلك المساء كان فرحا يبشر بصعود خط الزئبق في زجاج مقياس الحرارة . واحس ان المدينة كلها تتنفس الصعداء .

مثل زحام الناس اخرج انا وزوجتي واولادي لنزهة صباحية في الشارع الرئيسي لمدينة برلين « كورفور ستندان » . ربما نأمل مثل الناس الاخرين ان نستقبل بشائر الربيع في منتصف الطريق . واذا بي ارى حاملات الاعلانات وقد الصقت عليها لوحات تعلن عن المهرجان الثاني والثلاثين البرليني للفيلم . في هذه اللحظة تحرك في قلبي الفرح . وفي ذات اللحظة تحرك في قلب زوجتي الخوف . نعم . تلك ايام عشرة او اكثر اكون فيها غائبا عن البيت تماما بجسمي وعقلي وقلبي وروحي ، يستغرق المهرجان كل وقتي وكل عواطفي وكل قدرتي على التفكير والعطاء . تبادلنا انا وزوجتي نظرة ، في عينيها العتاب وفي عيني الاعتذار الخجلان . ماذا اقول لابد مما ليس منه بد .

* * *

هذه هي المرة التاسعة التي احضر فيها هذا المهرجان . احاول ان ان اتذكر كل الشعارات لكل المهرجانات السابقة . كان الشعار مرة فطيرة صغيرة في داخلها شريط فيلم سيلوزي . كنت كل مرة ارى فيها هذه الصورة اخرس اذ اتصورني اقضم في الفطيرة وامضغ شريط السليلوز . وكان الشعار صورة النصف الاعلى لجسم عضلي مليء بالشعر يحمل كل يوم وجه ممثل او ممثلة مشهورة . لم احب ذلك هذه المرة ولا غيرها في المرات الثمانية التي عايشت فيها المهرجان . هذا العام رسموا مصباحا كهربيا يشع من داخله اسم المهرجان . طيب ياسيدي . هذا شيء غير مثير وهو ايضا غير مزعج .

لكن المهرجان يكون في كل مرة شيئا بالغ الاثارة . ناس من اركان الدنيا الاربع ، من كل مذهب في الفن والفكر ، من كل نظام سياسي او اجتماعي، من كل لون وعرق ، ماكينة بشرية هائلة مشغولة بشيء واحد هو صناعة السينما في العالم . قضية تنشغل بها حتى تذهل عن المكان وعن الوقت . لكم اشتاق لكي القي بنفسي في الخضم . لكم احلم بالايام القادمة من الثاني عشر حتى الثالث والعشرين من فبراير (شباط) .

في كل عام وبعد عرض اول افلام المهرجان تقام لكل المدعوين حفلة استقبال كبرى في فندق من اكبر فنادق المدينة او في قاعة من اكبر قاعاتها في اول مساء من اماسي ايام المهرجان . اتذكر حفلة استقبال العام الماضي. اقيمت في فندق برلين العالي . حينما خطوت داخلا غرقت في بحر من ضوء كريستالي فردوس كأنه حلم من الاحلام . حشد من اجمل فتيات برلين ، شقراوات شاهقات يحملن الصواني المحملة بالكؤوس ويطرن حولي كالملائكة . مشيت تحت ثريات النور داخلا . بوفيه الطعام طوله مئتا متر وفيه كل مايخطر على القلب من طعام وحلوى . اربع فرق موسيقية تعزف في مختلف ابهاء الفندق . جو من الانطلاق وسقوط الحواجز بين البشر يكاد ينسى الواحد ان في الدنيا خلافات سياسية او دينية او حروب او احقاد . الجماعات تتقارب وتتبادل الاسماء وانواع المهن وتتكلم عن اخر المهرجانات التي رأتها وشاركت فيها وعن المهرجان

الذي بدأ توا ، عما يأملون وعما يعانون وعن الذي يخططون له من كتابة او تجارة او صناعة . ثم مع ذلك كله تكون الحكايات الصغيرة والفضائح الصغيرة . بعضها انساني ورائع . بعضها مؤلم وجارح وبعضها مضجر وممل . آه ايتها الحياة . كل الانهار تجري الى بحرك الخضم والبحر ليس بملآن . انا ايضا كانت لي في العام الماضي حكاية صغيرة . لازال في اذني صوتها وعلى يدي ملمسها ولازال في قلبي ذلك الالم . الم من ينشر اثر ذكريات مبارحة .. ترى هل تاتي هذا العام ، اتأمل اعلان المهرجان شاردا وزوجتي تتأمل عيني . تريد ان تغتصب حقيقتي . وانا اكره العنف حتى في نظرة متسائلة في عيني انسان .

* * *

انا لست صحفيا مفوضا من صحيفة ما . انما انا كاتب مصري اعيش في الغربة معلق النظرات بوطن تعيس . وعليه فانني لست مدعوا لهذا المؤتمر . لا املك بطاقة دعوة ولا تذاكر مجانية لحضور العروض السينمائية . ذهبت الى دار العرض الرئيسية لاشتري تذاكري للايام وللافلام التي اريد ان اراها . قبل ان اتخذ قراري ذهبت الى تلك الدكانة الصغيرة التي توجد فيها المواد الدعائية عن المهرجان الوشيك. اخذت في يدي حملا ومشيت اتفحصها في الشارع المؤدي الى دار العرض الرئيسية (تسوبالاست) .

ان الجهة المنظمة للمهرجان والتي تنظمة كل عام هي مؤسسة برلين للمهرجانات وهي هيئة خاضعة لحكومة برلين . اي انها ليست شركة استثمار خاص . لكنها في عملها كله انما تخضع لمبدأ ربحية المشروع . وذلك هو المبدا المتحكم في كل الهيئات الخاضعة للحكومة في كل المانيا . وحكومة برلين اذ تدخل السوق كمستثمرة لا تهدف الى تحقيق الربح انما الى تحقيق اهداف اقتصادية واجتماعية وسياسية بحجم الراسمال الخاص عن تحقيقها . وهي تستخدم مقياس الربح المادي كمقياس لنجاح المشروع فقط ومن الناحية الادارية . الاهداف

الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تهدف مؤسسة برلين للمهرجانات هي انعاش مدينة برلين اقتصاديا وهي كذلك مساعدة صناعة السينما الالمانية وتقديم الخبرة لها ؛ ثم استخدام المهرجان السينمائي وغيره من المهرجانات لدعم ودفع السياسة الثقافية بل والسياسة الخارجية لالمانيا الاتحادية . تلك حقائق لا ينبغي أن تنسى اذا كان المراد فهم دور المهرجان واسلوبه وقراراته .

لكن الى جوار مؤسسة برلين للمهرجانات تشترك في المهرجان هيئات اخرى . تراقب الافلام المعروضة وتقيمها انطلاقا من وجهة نظر ما . ثم تمنح جوائزها في نهاية الامر لما تراه من الافلام محققا لاخراجها واهدافها . تلك الهيئات :

- هيئة المحلفين البروتستانتية العالمية للسينما
- المنظمة السينمائية الكاثوليكية العالمية
- الاتحاد العالمي لفن السينما
- اللجنة العالمية لنشر الفنون والآداب بواسطة السينما
- هيئة السينما لمؤسسة الطفل في الامم المتحدة
- صحيفة (مورجن بوست) أو (بريد الصباح) البرلينية
- الاتحاد العالمي للصحافة السينمائية

ومؤسسة برلين للمهرجانات تنظم الى جانب المهرجان الاساسي للفيلم مهرجانا لأفلام الشبان ومهرجانا لافلام الاطفال . ثم هي تنظم أيضا عرضا اعلاميا عن السينما في مختلف بلدان العالم وسوقا للفيلم تكون فيه وسيطة بين المنتجين واصحاب دور العرض في سوق السينما العالمي الذي لا يركد ابداً . واخيرا تنظم عرضا تذكاريا عن امجاد صناعة السينما في الايام الغابرة . وهذا العام خصص هذا العرض تكريما للنجم العالمي جيمس ستيوارت واعادة اهم افلامه بين العروض التذكارية .

والمسابقة الرئيسية تعرض افلامها في قاعة سينما تسوبالاست وتعاد في اليوم التالي في قاعة السينما المجاورة جلوريابالاست اما افلام الشباب فتعرض في قاعة سينما ولفي التي تبعد حوالي خمسمائة متر عن قاعة عرض الافلام المشتركة في المسابقة الرئيسية والتي تقع في مقابلها سينما آكي التي تعرض فيها الافلام الاعلامية عن صناعة السينما في البلدان المختلفة وبقيتها تعرض في سينما باريس في شارع كورفور ستندام . وفي مقابلها سينما آستر التي تعرض الافلام التذكارية مزينة واجهتها بصورة عملاقة للممثل جيمس ستيوارت .

افلام الاطفال تعرض في ثلاث قاعات صغيرة محيطة بالمنطقة. اما افلام السوق فتعرض في ستوديوهات خاصة في المبنى الرئيسي المخصص للمهرجان والذي فيه الكافيتريا ومكاتب البلدان والشركات المشتركة وصناديق الصحفيين ومكاتب الاستعلامات وكل ما يتعلق بادارة المهرجان . هذه الاستوديوهات لا تدخل الا بدعوى خاصة من المنتجين او اصحاب دور العرض الراغبة في الشراء .

هذه الصورة كلها اطالعها في كومة الاوراق التي في يدي وانا امشي في البواكي امام المحلات التجارية في شارع بودابست وهي صورة اعرفها من سنوات عديدة اعايش فيها هذا المهرجان التي ستبدأ الليلة ماكينته الهائلة في الدوران . احس بالدوار لمجرد تخيلي لدوران آلة المؤتمر . افلام تعرض . اكوام من المعلومات عن هذه الافلام . مؤتمرات صحفية يعقدها ممثلون او مخرجون او منتجون او تعقدها ادارة المهرجان نفسه . اخبار تترى عن زيارات لنجوم او كواكب سينمائية . كتيبات عن صناعة السينما بشكل عام او في بلد من البلدان . متاحف ومعارض تقام بمناسبة المهرجان ومثالها هذا العام معرض صور المخرج الايطالي الراحل بازوليني . منظمات سياسية او اجتماعية تنتهز فرصة المهرجان لتقوم بالدعاية لافكارها ومبادئها ونشاطاتها . ثم الى جانب ذلك العلاقات الانسانية التي

تقوم بكل ابعادها بين هذه الكمية من البشر المثقف التي حشدت من جوانب الدنيا للاشتراك في هذا المهرجان . ينتابني الدوار وانا افكر في هذا كله . واسال نفسي هل يمكن لجهد واحد فرد ان يقدم للقارىء العربي صورة كاملة لجوانب هذا المهرجان . ان هذا مستحيل . واي جريدة المانية هنا تريد ان تغطي اخبار المؤتمر انما تحشد فريقا كبيرا من المخبرين الصحفيين والنقاد والمصورين . هذا الى انني لست صحفيا انما انا كاتب عربي . القي بنفسي في التجربة واحدث قارئي بما تركته في نفسي من أثر . حديثا خاصا هامسا ودودا .

وعليه فقد اتخذت قرارا لم اراجعه او امتحن صحته . سأقتصر على مشاهدة افلام المباراة الرئيسية . ثم اقرأ تعليقات الصحف الالمانية على المهرجان ثم اكتب عما عاينته كمشاهد عادي من العالم الثالث . ذهبت وقفت في الطابور الطويل امام سينما توبالاست لاشتري تذاكري .

* * *

اتصلت بفندقها . انها مدعوة ومحجوزة لها غرفة في الفندق ولكنها لم تصل بعد . اتصل بالفندق كل نصف ساعة لاحصل على نفس الاجابة . في الساعة الرابعة مساء من يوم اثني عشر فبراير (شباط) بدات العروض بفيلم (مئة مليار دولار) للمخرج الفرنسي هنري فرنوي . ثم أسرعت لارى ماذا يقول المخرج في مؤتمره الصحفي . بعد ذلك اسرعت الى مكتب الاستعلامات لاسأل عنها . قلبت السيدة في اوراقها ثم انبأتني ان المسئول عنها اعتذرت عن الحضور في آخر لحظة . جرجرت اقدامي منصرفا . مشيت متفكرا . في العام الماضي تعرفنا في حفلة الاستقبال الافتتاحية ثم ظللنا معا طول مدة المهرجان لم نفترق لحظة واحدة . نشاهد الافلام ونتبادل الملاحظات . نقرأ اكوام المواد الاعلامية . نجري من مؤتمر الى مؤتمر حتى ساعة متأخرة من المساء . حينئذ نترك انفسنا لمدينة برلين تحضن تعبنا الى صدرها . لازلت اذكر هذه الانسانية . لازلت ارى اصابعها حول كأسها ووجهها المجهد .

لازلت اسمع بحة صوتها وهي تحكي لي حكايات صغيرة لطيفة من يومها الطويل . ولازلت اذكر ذكاءها الانثوي الخارق وهي تعلق تعليقات حادة على رجال صناعة السينما ونجومها . عن الصناعة نفسها في هذه الدنيا بمعسكراتها السياسية وخلافاتها الظاهرة والخفية ... هكذا ظللنا معا حتى انتهى المهرجان واعلنت الجوائز .

ليس لدى وقت ولا رغبة لحضور حفلة الافتتاح هذا العام . وساخوض تجربة هذا المهرجان دون وجودها جنبي . لاباس . تركت نفسي للدوامة . اشاهد الافلام . اقرأ اكوام المواد الاعلامية . اسرع الى المؤتمرات الصحفية . اشرب الشاي والقهوة واتصبر بالفطائر في كافتيريا المهرجان او في المقاهي القريبة . اقابل المعارف والاصحاب والاحباب من الوطن ومن كل بلد . ارى وجوها من كل لون . اتكلم كل اللغات التي اعرفها وايضا تلك التي لا اعرفها . هنا معرفة لغة اخرى شيء عظيم وشيء اعظم الا يعرف الواحد لغة محدثة . حينئذ يكون التفاهم باليد والرجل والراس وكل شيء آخر . ويكون ضحك مجلل اذا تم الانتصار على حاجز الخرس ... هكذا حتى انتهى المهرجان ووزعت الجوائز .

* * *

لن اسوق تقريرا اخباريا عن الجوائز وتوزيعها فقد تكفلت بذلك الاذاعات والجرائد اليومية . فقط اريد ان اذكر بما سقته في سياق الكلام من أن مؤسسة برلين للمهرجانات ليست مؤسسة مكرسة لخدمة صناعة السينما ، بل هي مؤسسة تقوم لخدمة مصالح المانية اشرنا اليها . اذا وضعنا من هذه المصالح انعاش برلين اقتصاديا وتدعيم صناعة السينما الالمانية جانبا . وهما امران يتحققان بمجرد قيام مهرجان ناجح . اذا وضعنا هذان الامران جانبا بقي لدينا ان مؤسسة برلين للمهرجانات انما هي في خدمة السياسة الثقافية لالمانيا الاتحادية ، بل وفي خدمة سياستها الخارجية . ومن يعرف قليلا من سياسة المانيا الاتحادية الخارجية وسياستها الثقافية ومن قرأ عن نتائج المهرجان او سمع بها سوف يبتسم ابتسامة مفيدة .

ان صناعة السينما تتوجه الى جمهور عالمي قد تفرقه الخلافات السياسية والعقائدية والحدود الجغرافية ، لكن توحده انه جمهور من البشر يملك حسا حيويا بما هو انساني وما هو معاد للانسان ، بالعدالة والظالم ، بالضار وبالنافع . وصناعة السينما ــ ككل فن ــ تريد لنفسها العالمية ، وعليه فهي بطبيعتها تكره كل ما يحد من عالميتها ويحبسها في نطاق جغرافي او عقائدي او حزبي . لكن تحرر صناعة السينما من كل هذا ليس سهلا . فالفيلم بطبيعته اكثر من اي عمل فني آخر محتاج الى تمويل ضخم والى فريق من الفنانين والتقنيين كبير . وليس من السهل ، بل انه يكاد يكون من المستحيل ان يوجد رأس المال المتحرر من اي ارتباط بمصلحة سياسية او عقائدية او جغرافية . كذلك يصعب وجود فريق كبير من العاملين يسمو وعيه بفن السينما عن اي ارتباطات سياسية او عقائدية او اقليمية .

لكن صناعة السينما تكافح ضد كل ما يعوقها من تحقيق عالميتها . وسوف يكون هذا الصراع هو محركها الاساسي لوقت طويل قادم . بهذا الوعي تذهب صناعة السينما الى المهرجانات ليس في المحل الاول جريا وراء الجوائز ، بل سعيا وراء جمهورها تريد ان تفتنه وتبهره وترضيه وتثيره . وهي في كل مهرجان تمتد قوتها وفعاليتها وتجرب كل فنونها وافكارها ومستحدثاتها . وهي في كل مهرجان تتعلم كثيرا وتحشد تجاربا تضعها في خدمتها في تطوير مستمر لا يتوانى لحظة واحدة .

وعليه ففي حدود علمي لا يوجد مهرجان للفيلم يمكن ان يكون هدفه خدمة صناعة السينما فقط متجردا من اي مصلحة اخرى . لكنه في ذات الوقت لا يوجد مهرجان سينمائي لا تفيد منه صناعة السينما فائدة كبيرة في تجديد نفسها والاقتراب من جمهورها عبر كل العوائق . فما الذي كان لدى السينما العالمية لتقوله لجمهورها في مهرجان برلين السينمائي الثاني والثلاثين . من ناحية الفن السينمائي لم يكن ثمة جديد خارق يستحق التنويه به على حدة ولذلك سأتناول افلام المسابقة من وجهة القضايا التي عرضتها وبترتيب اهمية هذه القضايا من وجهة نظري انا .

* * *

الفيلم الذي ابدأ به مـن اخراج جون بالدهام . وهـو قائم على مسرحية بذات الاسم : « انها حياتي انا ؟ » لا زال الفيلم يحمل آثارها حيث يقوم على ركيزتين : قوة الحبكة وابداع الممثل . الممثل كن هاريسون (بمثله بعظمة ريتشارد درايفوس) مثال للفنان المبدع والانسان المليء بالحيوية ، يقود عربته وسط مدينة بربرية القبح بضجيج عرباتها وضخامة الشاحنات السائرة في شوارعها . ويكون ان يصاب المثال في حادث سيارة وينقل الى المستشفى حيث يتم انقاذ حياته لكي يبقى مشلولا شللا كاملا. على الفور يبدأ يبرم بحياته وبالحيل الطبية التي تبقيه على الحياة (الكلى الصناعية) بجسد لا حراك فيه . انه مثال وحياته من غير ذلك الفن لا قيمة لها .وبهولا يريد ان يحاول شيئا آخر فهو يرى ان الحياة هي العمل وليست المحاولة وعليه فهو يرغب ان يوقف علاجه ويترك ليموت. لكن الطبيب المعالج يرفض ذلك المنطق ان الحياة عنده هي ما عدا الموت . والموت قبيح ومقزز وغير مقبول . وهو يصر على الاحتفاظ بالفنان حيا ولو بالقوة .

هل هذه ميلودراما تعالج صدفة مفردة فاجعة ؟ ان عرض الآليـه البربرية في شوارع المدينة في اول الفيلم يريد ان ينفي عن الحادثة صفة الصدفة ويدرجها في عداد المآسي اليومية . وعليه فالموقف منها يجب ان يكون جزءا من وعي الفرد بنفسه وبما حوله .

الفنان المشلول واقع في قبضة الطبيب الذي يرفض تنفيذ تلك الرغبة في وقف العلاج فلا يكون امام الفنان الا اللجوء للقضاء . اليـس المبادىء الاساسية للقانون هي احد المكاسب الحضارية الاساسية للانسان . يعطي القاضي المريض الحق في رفض العلاج .. ياله من قرار فاجع .. ياله من قرار نبيل .

❋ ❋ ❋

كان الفيلم الذي اشرت اليه غير مشترك في المسابقة فلـم يذكر في الجوائز . اما الفيلم الذي اتكلم عنه الآن : القاتل الطيب او العبيط

القاتل فلم يفز الا بجائزة عن التمثيل خصت الممثل ستلان سكارسجارد. هذا الفيلم من اخراج السويدي الفردسون يعالج فكرة قديمة جديدة في الفكر الانساني مؤداها ان الخير فكرة شديدة البساطة لا تستعصي على فهم أي فرد مهما كانت سذاجته . اما الشر فهو فكرة ملتوية معقدة تحتاج من الفرد الى كمية من الدهاء حتى يستطيع ان يعايشها ويحتال عليها ويداورها . ولا يمكن احصاء الاعمال الفنية التي تتناول هذا الموضوع لكن على قمتها بلاشك رواية الفنان الروسي الاعظم دستويفسكي (العبيط) .

العبيط في هذا الفيلم يعيش بعد موت امه في كنف مزارع وراسمالي كبير في السويد في الثلاثينات من هذا القرن . شاب عنده عيب خلقي يجعله معوج اللسان . وهو طيب يقرا التوراة بحب ويعشق الالات والسيارات بشكل خاص ويبرع في العلم بأسرارها . ينام في الاسطبل وحيدا الا من اسراب الملائكة التي تزوره ليلا وتحوم حول سريره البائس على موسيقى فردي الرائعة .

العبيط يتعذب عذابا اليما بما يشاهده من انحطاط الراسمالي وبطشه بمن حوله حتى ياخذ سكين جزاره ويذبح الراسمالي وحوله اسراب الملائكة وموسيقا فردي . تلك هي النقطة . السذاجة لا تقف مكتوفة اليدين امام الالتواء والتعقيد . الخير يذبح الشر على انغام رائعة وحواليه الملائكة تباركه . اترى لما في هذه الفكرة من خطورة ، لم يحصل الفيلم على اية جائزة . اترى كان الخوف من ان يعتبر الفيلم اشارة وفهما جديدا للارهاب الذي يتسع انتشاره في اوربا ويتمتع ابطاله بتأييد صامت لدى قطاعات واسعة من جماهير الشباب خاصة ؟ .. ربما لا استطيع ان اؤكد ذلك ولا يسعني نفيه .

* * *

حاز على جائزة الدب الفضي لاحسن ممثل ميشيل بيكولي عن دوره في فيلم حكاية غريبة وان كنت انا لم يعجبني تمثيله للدور الى حد اعطائه

جائزة . لكن الذي اثارني هو القضية العامة التي يعرضها الفيلم . قضية مدير محل البيع الكبير الذي يسيطر على العاملين معه حتى يسلبهم القدرة على الحياة خارج دائرة ظله . بذلك تتحطم الحياة الزوجية للموظف الشاب لدى كولان ويذهب ليعيش في بيت المدير حيث نراه يلعب في استمتاع مع زميل آخر وهما يرتديان سراويل قصيرة . واذا يظهر الرئيس يكويان له سراويله ويلمعان احذيته .

ان هذا الفيلم يثير التساؤل حول طبيعة بنية المجتمع الراسمالي . انها بنية ابوية تمجد علاقة الابن ـ الاب وتجعل اي علاقة انسانية اخرى الى جانبها حائلة باهتة .

* * *

الفيلم السويسري « حب النساء » لم يفز باية جائزة لكنه اعجبني بشكل خاص . انه يقدم اربعة نماذج من الرجال كل واحد منهم بطل حكاية حب فاشلة . مهندس معماري ومساعده وصحفي ثم مدرس متقدم في السن . الفشل في الحب لا يعزى الى سبب واحد محدد يمكن مناقشته، بل يعزى الى عجز عن التحقق ، عجز عن صنع اي شيء جميل . حبيبة المهندس تريد ان تنجب منه طفلا وهو لا يريد لان العالم قبيح ، صديقة الصحفي تخبره ان حبها له يفوق الوصف ، يسألها عن موعد لقائهما الثاني فتقول ان هذا الموعد لن يكون ابدا . ثم ترفض كل محاولاته للاتصال بها . مساعد المهندس يقنع بعلاقات عابرة . يسافر الثلاثة لزيارة المدرس ليجدوه يعيش مرارة ووحدة مطلقة . في طريق العودة يتعرف مساعد المهندس على واحدة لكن لا احد يصدق املا في علاقة ناجحة .

لاي شيء يرجع هذا العجز عن الحب . اشار الفيلم الى ذلك اشارات غامضة تشير باصابع الاتهام الى قبح المدينة المصنوع من الاسمنت المسلح الذي يعدو على كل ما في الطبيعة من جمال . اما كان القول في الاساس

المذكور . الحقيقة ان العجز عن الحب سمة عصرية سامة ومدمرة . نسبة الطلاق الرسمية في برلين الغربية ٥٦٪ والنسبة الحقيقية قد تصل الى ٨٠٪ .

* * *

الفيلم الهنغاري « الصلاة على روح الغائب » يقدم تصورا جديدا للشوري ان عضو الحزب القديم تحول الى بيروقراطي يستغل منصبه للاثراء . والشوري الحقيقي الذي ابلى بلاءا حسنا في مقاومة النازي يعذب في السجن حتى الموت . هذا الشوري الذي مات لم يكن من الذين يطنطنون بالشعارات النضالية التي لم يعد يصدقها احد . بل كان رجلا يحب الفن والادب ويعشق المرأة الجميلة متجسدة في حبيبته السابقة نتي هل تبقى الثورة الحقيقية في دول الكتلة الشرقية مكبلة بالاغلال في السجون تعذب حتى يقضى عليها ؟ الفيلم يبشر بشيء آخر . الحبيب الذي مات في السجن نوض زميله الشاب ان يأخذ مذكراته من الحبيبة ليقراها . واذ يرى الشاب الحبيبة يرى حياة الحبيب الذي مات كلها . واذ تمنحه جسدها يكون قد ملك السر . يخرج الى الدنيا بقلب جديد .

* * *

كان ثمة افلام اخرى كثيرة في المسابقة وقضايا اخرى بعضها عولج معالجة سطحية او باهتة او مكررة حتى انها لا تستحق من وجهة نظري ان يكتب عنها . لكنني رغم ذلك اجدني مضطرا للكلام عن فيلمين : العربي « لقاء في بيروت » والاسرائيلي « غوص متكرر » اللذين اشتركا في المسابقة .

الفيلم العربي اللبناني التونسي البلجيكي المشترك يصور مأساة المدينة المبتلية بيروت . ويقدم وقع هذه الحال على علاقة الحب بين الشابين حيدر وزينة التي تتحول الى حطام مثل حطام المدينة المحيطة بهذه العلاقة . شيء شديد التأثير لا لان الفيلم جيد ، بل لان واقع

المدينة فاجع . وعن هذه الفاجعة لا يقول الفيلم شيئا ، لا يقول لماذا ومن الجاني ومـا المصير . يثرثر حول هذه الاشياء بلا معنى . وان قال فهو يقدم المسلحين الذين يتربصون بالناس في الطرق ويقتنصون مـن الناس الاتاوات .. من هؤلاء .. اي معسكر يتبعون .. لم تقل الفيلم شيئا . وان كان الجمهور الغربي كان لديه كل مبرر ليعتقد ان الفيلم ضد الفلسطينيين . وبعد قليل فقد الفيلم القدرة على القول فعقد المخرج حوله حلقه ليناقش الفيلم . وكانت غشاشة تقلب الامعاء . قلت لزميل يجلس الى جواري : يا اخي لا شك ان الفترة التاريخية التي يمر بهـا الوطن العربي الان من اخراج الاستاذ برهان علوية وتمثيل الاستاذ امـين .

* * *

اما الفيلم الاسرائيلي فهو تمجيد فج للعسكرية الاسرائيلية و (انتصاراتها المجيدة) . ضباط الضفادع البشرية ذوي اجساد عضلية وعنف وسكر وعربدة وحولهم مومسات في الزي العسكري يقصدون القيادة بهـدف الترفيه عن الابطال . و (الغوص يتكرر) لتتفجر سفن (الاعداء) في ميناء الاسكندرية وتصدر الصحف بالعناوين العريضة . ثم يموت (بطل) من هؤلاء لتترمل زوجته فترة قصيرة تتزوج بعدها (بطلا) آخرا علـى التقاليد (الاسرائيلية العريقة) .

ويصطدم الفيلم باحاسيس جمهور اوربي سئم الحروب وتقزز من العسكرية وليس لديه استعداد لان تتحول المراة الى مجرد مومس للترفيه عن الابطال . يحاط الفيلم بالصمت ولا يجد المسئول الصحفي عن المهرجان الا أن يصرح بذلك وهو يقدم مخرج الفيلم في المؤتمر الصحفي . ولا تبدد احساسات المخرج بالحرج حماس بعض المشتركين اليهود في المؤتمر الذين يهللون للفيلم ولجيش اسرائيل الباسل .

قمت اوجه سؤالا للمخرج وتركزت علي العدسات والميكروفونات : كان هذا نص سؤالي : ان الفيلم تمجيد للاداة العسكرية الاسرائيلية .

هذا صارم للراي العام العالمي .. لكن المخرج يقول ان الفيلم لم يكن كافيا بالنسبة للمتفرج الاسرائيلي .. كيف افهم اذن نفسية هذا المتفرج؟

قال المخرج : نحن نعيش ظروفا خاصة وجمهورنا جمهور خاص ..

سألت مرة اخرى : هل الفيلم يصور تماما وضع المراة في المجتمع الاسرائيلي ؟

كان ذهول وكان صخب وصريخ من جوقة الصحفيين اليهود .. واضطرت الممثلة الى ان تأخذ الميكروفون لتنفي ذلك وتؤكد ان الفيلم يتكلم عن حالة خاصة جدا .. ! اما انا فقد خرجت فورا .

* * *

استمعت الى النتائج شاردا . خرجت الى الشارع . ثمة احساس بأن آلة المهرجان الرهيبة تتنفس الصعداء ، فتلك الايام الكثيرة من الجهد فوق طاقة البشر قد آذنت بالانتهاء والجوائز أعلنت . لم تفاجيء احدا . ادارة المهرجان لها حساباتها والسينما لها حسابات اخرى في طريقها الرائع لتكون اكثر فنون العصر التصاقا بجمهور العصر . هاأناذا ارى الوجوه المتعبة تلك آخر نظرة على مسار برلين قبل الرحيل . ملامح متعبة واكتاف متهدلة بعد ايام من العمل الشاق . وهاهم العمال يرفعون اللافتات ويفكون الاضواء . في خلال ساعة تعود برلين حياتها العادية دون تلك الدوامة التي عزلتني عن الوقت وعن المدينة ذاتها .

قابلتها تحمل حقيبتها الكبيرة وكاميرتها وتسير زائغة العينين في الشارع . يبدو على وجهها الارهاق وعسر الهضم ، وبطنها متضخمة من عشاء ثقيل . عزمت عليها ان تشرب معي قهوة ، لكنها فضلت ان اذهب معها الى الشقة التي تقيم فيها . انها سويسرية تتكلم قليلا من الالمانية . وهي تقيم في شقة أصدقاء لها وقد تقابلنا كثيرا اثناء متابعتنا معا لافلام المهرجان . الان لا رغبة عندها للكلام عن السينما . مشغولة بخططها للوقت القادم . مكتئبة ومهمومة وغير متفائلة .

طلقت من زوجها الاول بعد زواج ست سنوات . بعده عرفت صديقا كانت مجنونة به لكنه تركها بعد ستة شهور دون كلمة . دخلنا الشقة . مبنى قديم واسع الغرف شاحب الاضاءة ضغط على قلبي . صور الوالدان العجوزان على الجدران . الكراسي المتربة وبقايا الشموع . مكتب ابن الاسرة الشاب. البوم صورمن الجلد مليء بصور الشذوذ .كدت اتقيأ امعائي . اغلقته في صمت . الفتاة جلست قبالتي تحكي .

تعرفت على شاب في المهرجان . لم تسأله عن شيء لكنه افهمها بكل الطرق انه غير متزوج وانه يحبها . انها تعلقت به . اتصلت ببيته في التليفون عرفت انه متزوج وله بنت . تحكي مغمضة العينين كأنها بومة تنعب . لم أستطيع ان احتمل اكثر . استأذنت لأمشي اتسعت عيناها دهشة .

اسلمت نفسي للشارع . في مثل هذا من العام الماضي ودعت صديقتي وقفت في شرفة غرفتها في الفندق تلوح لي بيدها حتى انحرف بي الشارع هائماً يحمل قلبي كآبة الواقع وكآبة الذكرى .

هنا في هذا المكان لمحت الاعلان عن المهرجان للمرة الاولى . كانت معي زوجتي نظرت الي نظرة عامة . احس نظرتها الان وهي بعيدة . من فرسون يلصق على هذا الاعلان اعلان آخرعن شيء آخر. لكن المرارة ستبقى في قلبي وروحي مدة اطول . تصاحبني وانا اكتب بضعة كلمات عن مهرجان فات .

برلين الغربية ١٩٨٢/٣/٣

حـوار :

الياس لحود

لغة القصيدة الجديدة يجب أن تكون من علاقات جديدة

جمال عبود

عشرون عاما وهو يلهث . عشرون عاما وهو ينزف . عشرون عاما من المعاناة والعطاء. وكانت دواوينه الخمس ، اخرها المشاهد ولماذا هي المشاهد ولماذا هي الدواوين ، الصادرة والتي ستصدر ، ولماذا هو الشعر.

ان يكن الشعر هاجس الشعراء ، فاي شعر يسكن هذا الهاجس . وماذا عن هاجسنا نحن . لاجل هذا نحن نسال .

□ عمَّ تبحث في شعرك .. ؟

ــ انا معلّق بين زمنين وهما ينتقلان بين الاتي و « حاضر الماضي » ، لا ينتميان الى « زمن ضائع » وان اقترب احياناًمن مفهوم بروست للزمن، كما انهما ليسا مفهومين للزمن / الوهم . « حاضر الماضي » هو الطفولة البالغة حد الرشد ، احاول دائما ان اتمثل حركتها في بنية القصيدة وهي حركة متناوبة . اعني ان هذا الزمن لا يمكن ان يستسلم لي الا من خلال لعبة الطفولة . هنا يبدأ **الطرف الاول** من المعادلة الايقاعية في بنية ايقاعية مفتوحة تلتقي مع **الطرف الثاني** الذي هو تمثل للآتي ينطلق من الحد الادنى للبعد وصولا الى الرؤيا . الرؤيا بنظري هي المجال الشعري للقصيدة . وهكذا ابحث دائما عن انتشار اوسع لبنى النص الشعري ، هذا كلام يصعب فهمه ما لم تتخل عن مفهومنا المالوف للزمن الشعري في القصيدة هو مجمل المفاجآت عبر سياق الزمن العادي التي تتشكل فنيا بعمليات خرق متواصلة .

□ **هل تعني بمفهومنا المالوف للزمن، الاستسلام الطوعي للايام الآتية .؟**

ــ قد يكون هذا ، وقد يكون اكثر من هذا عندما نعتبر العمل الشعري ابعد من انعكاس او تعبير يشكل الواقع فيه مجرد مؤثر خارجي بابعاد محدودة ... ما اطمح اليه هو ان احصل على نص او كتابة شعرية يكون فيها احتمال لتعدد القراءات . القراءة المتعددة للعمل الشعري تحرره من البعد التقريري المباشر وتفسح امامه في المجال ليصل الى آفاق الرؤيا اللغة الشعرية كما افهمها من خلال تجربتي الطويلة هي لغة الممكن وليست لغة القائم ، المعروف ، العادي ، المتعارف عليه ... لغة القصيدة الجديدة يجب ان تتكون من علاقات جديدة . لقد انتقلت في مجموعتي الاخيرة /المشاهد/ من التعبير اللفظي الى التمثيل المشهدي اعني انني توصلت بالمحاولة الى تحرير الكلمات من ذاكرتها اي الى اعادتها لطفولتها الاولى حتى تدخل من جديد في تركيب بنيوي اكثر انتشارا . لا يمكن للغة الشعر الحديث ان تحقق تجاوزا معينا الا اذا اسقطنا عنها ما علق

بها لتحررها في تشكيل جديد يتلاءم مع واقع متغير . قد يكون في الامر صعوبة او تعقيد ولكن لابد من فتح المعنى الى اقصى ما يتحمل لكي يكون معنى متجاوزا والا بقي معنى عاديا لواقع عادي . اذن ، ثمة جدلية لا تنتهي تمثل الحالة الابداعية اقصى لحظاتها توترا .

□ هنا اسمح لنفسي بمداخلة ثانية ما علاقة الكينونة لديك بالظرف المكاني،هذا اذا افترضنا ان ما سبق هو علاقة زمانية .. ؟

ـ العلاقة الزمانية هي برأيي علاقة مكانية اذ لا زمان خارج ايقاعية المكان . واذا اردنا ان نحدد الزمان علميا قلنا هو حصيلة قسمة المسافة على السرعة . والمسافة هي المكان ولا زمان بدونها . وان كانت السرعة تمثل الرابطة بينهما .

□ لديك قصيدة /رقص الحصاد / هناك تميز مكاني في دلالة الظرف لديك في مطلعها خاصة ام انا واهم

ـ « حين يلفحك النور
والمقل اللولبية تهوي على القمة العابقة
منجل الافق يرتج
تطفئك الريح تذرو رماد اخضرارك
تطوي يداك المناجل ... »

القصيدة تبدا بظرف ، ظرفها ... « حين يلفحك النور » ... القصيدة هنا مرهونة بالظرف ، بمعناه المتعارف عليه وانما هي معادل لتحوله عبر لغتها ؛ فالظرف هنا للمكان والزمان معا يكتسي حركتهما في جدلية متحولة والصور اللاحقة تعطي للبنية مجالانبنائها مشهدياحتى نهاية المقطع . هكذا يتشكل مقطع جديد يركز على استمرارية هذا التحول وصولا الى انفتاح اوسع حيث يتم تشكيل ايقاع متناوب ؛ يرصد حركة الواقع ويوصلها الى المتلقي بشيء من التوتر . التوتر هو المجال الحقيقي للرؤية البصرية التي تتحول الى رؤيا شعرية .

□ كيف تتواصل مع الذات الاخرى . وكيف تجدها

ـ ذلك يتم على الشكل التالي :

الفرد هو الجماعة والجماعة هي الفرد ولا يمكن تصور اي انفصال تعسفي بينهما . بهذا يتشكل التعبير الشعري على شيء من الغموض والصعوبة يقابلهما شيء من الوضوح الناتج عن عملية الانصهار الصحيحة الى اخر جزء من الانا . أو بمعنى ثان يسعى الانا الى انفتاح أوسع نحو الاخر . تقوم العلاقة التواصلية بين الداخل والخارج . هناك التزام بقضايا الخارج لانها غير منفصلة عن قضايا الداخل حتى في لحظة الابداع وعندما تبتكر العبارات والجمل الشعرية في بنية ما تمتزج مجموعة عناصر داخلية وخارجية في النص لتتنامى ، بتوالد التغيير من خلال هذا التنامي ولكن النتيجة لا تكون محددة كما تكون نتائج التجارب العملية ، وفي لا محدودية هذا الناتج الشعري تتكون القيمة وتتوالد الفاعلية الشعرية بالنسبة للآخر . ولنكن اكثر بساطة في التعبير فنقول : ان ذات الشاعر ليست مستقلة عن ذات الجماعة لانها جزء منها وان كانت مستقلة في لحظات التعبير المجتزأة التي هي في النهاية لا تتواجد كمجتزآت عناصر بل كمجموعة علاقات في مجموعة انظمة ساعية .

□ هنا ما موقع المعاناة . هل القصيدة سبب من اسباب المعاناة ام ناتج لهـا ؟

ـ القصيدة هي محصلة موهبة وثقافة ومعاناة . بهذه البساطة تحدد

القصيدة فالموهبة اولا والثقافة ثانيا والمعاناة هي خلاصة التجربة ان لـم اقل هي محرك التجربة .

بالنسبة لي تتبوأ المعاناة (بمعناها الشعبي) المكانة الاولى في النص الاكثر حداثة . اننا مسكونون دائما بهموم الذات والجماعة وعندما نعاني يعني ان نؤكد تفاعل الهم فينا والا كنا نجتر ما قيل او نمتص مادة قابلة بسهولة او بصعوبة للامتصاص . ولكن الاهم ان نخوض مع الثقافة الصراع الحتمي من اجل تحويلها في جهاز القصيدة . وانا كمواطن عايش الحرب اعترف بأنني كنت دائما مريضا بالمعاناة حتى انني لا استطيع الكتابة احيانا الا بعد فسحة زمنية تفصل بين الحدث وشرارة البدء . كثيرون يخدعوننا بمعاناة زائفة فيحللون لانفسهم عملية تجريب دائم . هذا تحايل على الابتكار الحقيقي اذ ان التجريب يجب ان يؤدي الـى الابتكار (وانا اركز على استعمال هذه الكلمة هنا) وليس الى تجريب جديد وهو مسموح به شرط ان يؤدي الى اضافة جديدة . اذا افتقدنا معايشة المعاناة فقدنا غاية التجريب اعني ولادة الابتكار . والابتكـار برأيي هو ما نضيفه ، وما يعبر بحق بلغة عادية عن واقع معتاد .

■ **ثمة سؤال وليسمح لي الاستاذ الياس لحود : هناك فجاعات نبتلي بها من كثير من الادباء يحلو لي ان اصفهم بالامية الادبية .فهناك خلط واضح وتشويش في الرؤى تحملـه اعمالهم . لإيضاح مثل ذلك اسالك عن علاقة الشكل بالمضمون في الوحدة الجمالية من خلال العزل والاختيار الذي يمارسه الفنان الشاعر ..**

ـ لسنا غريبين عن اورشليم كما يقال . كلنا نشكو من مفاهيم

خاطئة ، وإعلام مزيف ، وكتابات فيها المزيد من الادعاء . الكثيرون يقولون بالحداثة والتجديد ، والتجاوز ، وآخرون يقولون باصطدام التجربة الحديثة بسقفها وآخر حدودها ، وسقوطها قبل متابعة الطريق ... هذا كلام ، التجربة الحديثة مستمرة برغم الزيف والادعاء ، ورغم استماتة حركات الردة التي تستعمل زورا مصطلحات الاصالة والتراث والالتزام . الحقيقة (ولو تكلمنا بلغة معروفة جدا) ان لا شكل بلا مضمون ولا مضمون بلا شكل ، بمعنى آخر لا مضمون حديثا الا في شكل حديث خارجا منه منصهرا فيه : الحداثة الشعرية وليدة زمن متغير بجوهرها شكلا ومضمونا ، لا يمكن ان تنفى من كينونتها ولا يمكن ان تدعى في كينونة مزورة . هي هي وعلى هذا الاساس ستبقى الحداثة تجرب في سبيل ابتكارات جديدة وكلما وصلت الى ابتكار اخذت عناصره وحررتها من كل ما علق بها لتعيد بها تشكيل عمل مجاوز آخر يسعى الى ابتكارات متطورة . وبما ان الانسان العربي اليوم يعمل للخروج من زمن ضائع والعودة الى زمن غير موهوم ، وبما انه انسان ككل البشر له عقل وفكر وشعور ورؤيا ، اذن له حداثة يجب ان تتحقق على صعيد ابتكاراته الشعرية لتحدد آفاق تطلعاته في واقعه الشديد الحساسية . وللشعر ضرورة كما للفن عامة رغم كل ما تطرحه المرحلة من ادعاء بعدم هذه الضرورة ، لانه الاجدر في تحديد تطلعات الشخصية العربية الخارجة من حروبها مع القهر والتخلف والاستلاب والحداثة ما كانت لتطرح هموما خارج هذا الاطار .

■ اخيرا ، تطرح اليوم مشكلة قصيدة النثر وعلاقتها بالاصالة . هل تعني قصيدة النثر انقطاعا ام هي ضرورة مرحلة ..

– انني اكتب القصيدة التي يطلق عليها اسم النثرية كما اكتب القصيدة المفعلة . وارى ان كل قصيدة لها شكلها الخاص اذ لا يمكننا قطعا اسقاط الشكل الواحد على كائنات مختلفة الى ابعد الحدود . المهم الا نعترف مع الشعر بثوابت اعني المقاييس الموحدة . اذا كنا نقصد بقصيدة النثر كتابة شعرية متحررة الايقاع والصور الدلالية فانا كاتب قصيدة نثر لأن الاصالة تفرض الانسجام بين « الموضوع والكاتب » ، بين الابداع وحركة العنصر .. اما قصيدة « ثرثرة النثر » فساقطة .

ان مفهوم الاصالة الثابتة هو مفهوم ماضوي حل مكانه مفهوم اصالة الاحتمال وممكن التغيير ، اذ ما قيمة المادة التراثية التي تتعامل معها لتبقيها كما هي مكونة بشروط صاحبها وظروفه . الاهم الا تجعلها تحت دائرة شروطك وظروفك انت . هنا تكمن فاعلية الاصالة في هذا التحويل الواعي للمادة في مادة مستقبلية اكثر حيوية .

اخلص اخيرا الى القول بأن الذين يهاجمون الابداعات الشعرية المتطورة من باب انها ابتعدت عن الشخصية التراثية التاريخية وحلت لنفسها التلاعب بالمقدسات ، هم مخطئون لأن الابداعات المتطورة (واسقط في هذا المقام الكتابات النثرية الرديئة ، وهي التشكيلات الاكثر انسجاما مع حركة الكتاب وعصره وما غموضها الا من غموض المرحلة وكذلك تعقيدها .. ان لها مسارها في النظام الثقافي البديل وهي تطمح لان تقطع هذا المسار باقل كمية غموض وتعقيد . والاجدر بنا أن نعترف باختلاف العصر الذي

لا يمكن ابدا لاية اشكال بدائية تراثية ان تتجاوب معه وتعمل له من مواقع مختلفة وهذا ينادى به كبديل . اخيرا ان النموذج العمودي التقليدي ونموذج التفعيلة الحرة المباشر هما الشكلان الغريبان عن العصر البعيدان عنه وعن مشاكله وقضاياه لانهما يدوران في مشكلات وقضايا زمن مندثر على صعيد الزمن الشعري الحديث .

❋ ❋ ❋

تقـــاريــــر

نـدوة نـاصر الفكرية

عبد الرحمن حمادي

« ندوة ناصر الفكرية حول ملامح المشروع الحضاري العربي » هو عنوان الندوة الموسعة التي اقيمت في بيروت على مدى ثلاثة ايام ، بتاريخ ١٦ و ١٧ و ١٨ كانون الاول الماضي ، واعتبرت من اهم الاحداث الفكرية والثقافية في العاصمة اللبنانية مؤخرا ، ليس لانها ضمت اسماء مشاركين هم من المتخصصين في الفكر القومي والتاريخ العربي فحسب، بل لانها جاءت ردا على مظاهر لعبة التطبيع التي يقوم بها ساسة النظام في مصر ، ولتؤكد في ذكرى ميلاد الرئيس العربي جمال عبد الناصر ، ان الفكر العربي سيظل صامدا وقويا في زمن التحدي الذي يتعرض له .

فهمي هويدي : الاسلام والعروبة

اشار فهمي هويدي في بحثه المعنون بـ « خصوصية الحضارة الاسلامية » الى مجموعة من النقاط تعتبر علامات واضحة في الفكر العربي وهي :

اولا — ان الحضارة العربية الاسلامية لا يمكن فصلها عن حضارة الانسان ، وهي كانت محصلة لتلاقي عطاءات عديدة في الشرق والغرب ، ولا يقلل ذلك من شأن الحضارة الاسلامية العربية ، لان هذا التفاعل سمة الحضارات العالمية .

ثانيا — ان الخصوصية التي تميزت بها الحضارة العربية الاسلامية ، وثيقة الارتباط بخصوصية الاسلام ذاته ، فالتوجه الذي هو جوهر الاسلام ، يعطي الحضارة العربية الاسلامية هويتها ، وعندما كتب المفكرون الاقدمون والمحدثون تحت عنوان « التوحيد » ، فانهم فعلوا ذلك لانهم رأوا فيه القوة الكبرى التي تفجرت عنها جميع المظاهر الكونية للحضارة .

ثالثا — الدور الخاص الذي لعبه العرب باعتبارهم أول من حمل مشعل الحضارة الاسلامية بكل ما اتسم به من حماس طبيعي وعلو في الهمة وغير ذلك من صفات البطولة والاخلاص والطموح الى المجد والصدارة ، الامر الذي مكن الاسلام بروحه ومبادئه من توجيه تلك الطبيعة العربية .

رابعا — ان هذا التوجيه جعل تعبير الحضارة العربية مرادفا ومحققا المعنى الذي تؤدي اليه عبارة الحضارة الاسلامية .

خامسا — ان كلمة العرب والعروبة ، اتسعت بقدر اتساع عالم الاسلام ، حتى ان ثمة تيارا قويا من الباحثين بات يطلقها على كل من

تكلم العربية ، وكان لسانه عربيا ، وعن خصوصية الحضارة الاسلامية العربية وضع هويدي العلاقات الاربع التالية :

١ ــ ان الحضارة العربية حضارة خرجت من قلب الدين ، على ان ثمة تفرقة هنا ، وهي أن الحديث عن الدين يحتمل التفرقة بين الدين كمعتقد ، والدين من حيث هو ثقافة وقيم سائدة .

٢ ــ انها حضارة اتسمت بالشمول والاقناع ، فلقد تحقق انتشار هذه الحضارة على اوسع جبهة عرفها تاريخ الانسان المادي والمعنوي والاخلاقي ، اذ هي تعكس رؤية الاسلام للكون والحياة والانسان ، وذلك هو الترابط الذي لا يقبل التجزئة ولا الانفصام بين تلك العناصر في مجموعها ، بين الدين والدنيا ، والعقل والقلب والضمير والانسان والطبيعة .

٣ ــ ان تعدد المجالات التي اضافت اليها الحضارة الاسلامية والعربية ، كان مصحوبا بتعدد المراكز والمنارات التي حملت مشعل تلك الحضارة فوق رقعة واسعة ، تراوحت بين قارات العالم القديم ، آسيا وافريقيا واوروبا .

٤ ــ انها حضارة عالمية اسهم فيها الجميع ، شارك فيها العرب والعجم ، مثلما شارك فيها غير المسلمين مع المسلمين ، وان احدا لا يستطيع أن ينكر دور الفرس والترك والمغول والبربر في انجازات تلك الحضارة ، كما لا يستطيع ان ينكر دور المماليك .

وخلص هويدي الى القاء نظرة على المستقبل ، فقال :

« ان الحضارة العربية الاسلامية ظاهرة انسانية ، وليست سنة كونية ، ولذلك فقد كان طبيعيا ان تخضع لمختلف المؤثرات والاسباب التي تشكل الظواهر الانسانية ، لقد دب الفساد في جسد الامة الاسلامية ، وكان هذا الفساد الفكري والسياسي والاجتماعي هو الشرخ الاول في

الجدار الشامخ ، واذا كانت هذه الحضارة قد مرت بمراحل النمو التي عاشتها مختلف الحضارات ، واذا كانت قد واجهت مختلف العصور من مد وجزر وانحسار وانتشار ، واذا كانت امتنا قد خرجت من مرحلة صناعة الحضارة الى مرحلة استهلاك منجزاتها ، فمن الثابت ان هـذه الحضارة لم تمت ، وان جذوتها لم تنطفىء وان خبا نورها وذبل ، وان بوادر اليقظة وعلامات النهضة الفكرية التي عرفها العالم العربي منـذ القرن التاسع عشر ، وتمثلت في دعوات التجديد والاصلاح الديني ، خير شاهد على حالة اللاموت . » .

مداخلة المديني :

في مداخلته « قراءة في اسس الخطاب السلفي » دعا الدكتور احمد المديني الى استعادة الاسلام الصحيح من اجل مواجهة التحدي الغربي، واعادة استتباب الاسلام وتمكينه من السلطة التي كانت لديه .

« والحقيقة أن الغايتين تتكاملان ، اذ لا استتباب والتحدي قائم ، كما انه لا يمكن ردع هذا التحدي الا بتمكين السلطة واستعادة الوحدة والسيادة ، فالحث على الوحدة واسترجاع السيادة مهمة سياسية ، وقد تبطن الخطاب السلفي كله بهذه الدعوة ، مما يجعل مرتكزاته دينية وسياسية في آن واحد » .

وخلص المديني الى النتائج الآتية :

ـ ان الخطاب السلفي اراد ان يكون دينيا في منطلقه ليصحح الخطأ والفساد في الارض ، اي ما اصطلح على تسميته بواقع الانحطاط .

ـ نزه هذا الخطاب العقيدة من الخطأ ، ونفى عن الاسلام جريرة كل جمود او تخلف .

ـ الاسلام المطلوب هو اسـلام العصـر الذهبي ، والوحي الاول (القرآن) والنبي (ص) هما محوره .

ـ ان مبدأ التفسير وقبله التمحيص يفترض ادراك الحاجة الى فتح باب الاجتهاد ولكن ليس على مصراعيه .

ـ ان مقولة الوحدة التي هي أساس مشروع النهضة ، كرس نهوض الدولة الذي فيه نهوض المسلمين جميعا .

ـ ان موقف مجابهة التحدي من موقف الحفاظ على مواقع انهياره لا يمكن ان يؤدي الا الى مزيد من الانهيار .

ـ ان هناك سلفيات عديدة لا تستعيد الا من المفاهيم المرذولة ، وتعمل على تغييب العقل العربي في مجاهلها المعلومة باسم كل الفاظ القواميس العصرية لكل الانظمة العربية المهزومة امام تحديات التحديث والتغيير ..

الصيادي : المشروع الحضاري العربي وفلسطين :

مخلص الصيادي قدّم بحثا بعنوان « فلسطين في المشروع الحضاري العربي المعاصر » قال فيها :

« حتى نحـدد بدقة مكانة فلسطين في المشروع الحضاري العربي المعاصر ، فان هناك نقاطا أساسية لا بد ان نقف عليها :

اولا ـ طبيعة الهدف من اغتصاب فلسطين :

فالغرب الذي كان من أبرز علامات ثورته الفكرية « العلمانية » فصل الدين عن الدولة هو الذي وقف ممثلا بالجنرال غورو على قبر صلاح الدين الايوبي في دمشق ، في العام (١٩٢٠) يسترجع حقد الصليبيين ويقول : « ها قد عدنا يا صلاح الدين » ، هذا العقل الغربي ، هـذه الطبيعة في التفكير التي تبرز خاصية من اهم خصائص الحضارة الغربية المعاصرة ، هي التي بشكل مبكر حدت بنابليون بونابرت أن يستحث يهود عكا على خيانة الوطن ، وتحت وهم حلم قديم عن مملكة أورشليم من

اجـل تحقيق حلم مغامر ، لكن بونابرت كان يمثـل فتوة الراسمالية الاوروبية التي لم تنضج بعد ، لذلك كان تصريحه بمثابة الارهاصات الاولى لكيفية تعامل الغرب الاستعماري مع وطننا وامتنا .

بين هذا التصريح ، وبين تقرير لجنة « بنرمان » أكثر من قرن من الزمن ، تعدت فيه الراسمالية الاوروبيـة مرحلة الفتوة ، واصبحت ناضجة الى الدرجة التي تسمح لها ان تحول الارهاصات الى سياسات وخطط ، الى تناغم وتنسيق فيما بينها ، او صراع يحسم ويعيد التوازن والتوزيع مجددا .

تقرير هذه اللجنة التي شكلها « كامبل بنرمان » رئيس وزراء بريطانيا عام (١٩٠٧) جاء ليجيب على تساؤل اساسي : كيف نحول دون سقوط الامبراطوريات الاستعمارية ؟ ، وكل استباق لمعاني هذا التقرير سوف يقلل من ولادته القاطعة ، لذا فالأفضل ان نطالع اولا مقاطع اساسية فيـه :

يقول التقرير :

« ان الخطر المهدد يكمن في البحر المتوسط صلة الوصل بين الشرق والغرب ، وفي حوضه مهد الديانات والحضارات ، وفي شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه اخص ، فعلى طول ساحله الجنوبي من الرباط الى غزة ، وعلى الساحل الشرقي من غزة حتى مرسين واضنة ، وعلى الجسر البحري الضيق الذي يصل آسيا بافريقيا ، وتمر فيه قناة السويس ، شريان حياة اوروبا ، وعلى جانب البحر الاحمر ، وعلى طول ساحلي الهندي وبحر العرب ، وحتى خليج البصرة ، حيث الطريق الى الهند والامبراطوريات الاستعمارية في الشرق ، فيهذه البقعة الشاسعةالحساسة يعيش شعب واحد تتوفر له من وحدة تاريخه ودينه ، ووحدة لسانه وآماله كل مقومات المجتمـع والترابط والاتحـاد ، وتتوفر في نزعاته التحررية ، وفي ثرواته الطبيعية ، ومن كثرة تناسله ، كل اسباب القوة والتحرر والنهوض .

كيف يمكن ان يكون وضع هذه المنطقة اذا توحدت فعلا آمال شعبها واهدافه ، واذا اتجهت هذه القوة كلها في اتجاه واحد ؟ ! ان الخطر على كيان الامبراطوريات الاستعمارية كامن في الدرجة الاولى في هذه المنطقة، في تجمعها واتحادها حول عقيدة واحدة وهدف واحد ، فعلى كل الدول ذات المصلحة المشتركة ان تعمل على استمرار وضع المنطقة المجزأ المتاخر، وعلى ابقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وجهل ، وتأخر ، وتناحر » .

هذا التقرير يعبر عن مجمل العقل الغربي الاستعماري ، انه حصيلة رؤية علماء وخبراء في شؤون الاقتصاد والبترول والاستراتيجية والنقل وطبقات الارض والزراعة والاجتماع ، لا يفوتني هنا أن أشير الى أن بعض الباحثين العرب استعصى عليهم الحصول على نص هذا التقرير من ثائق الخارجية البريطانية ، وبالتالي نفوا عنه صفة التوثيق ، فانه حتى ، ولو لم توجد هذه الوثيقة، فان الاتجاهات العامة للسياسة الغربية تبدو وكأنها صيغت على اساس الرؤية التي طرحها هذا التقرير ، وقمة هذه السياسات الرسمية والعلنية ، كانت ذلك التصريح المدعو بـ « وعد بلفور » .

ثانيا ــ طبيعة الاداة في تحقيق هذا الهدف الطائفة اليهودية ، وهي اداة مميزة تجعلنا نشعر بعدم دقة القول بأن اسرائيل مجرد استعمار بريطاني او امريكي استيطاني ، او انه يتفوق على الاستعمار الاستيطاني بحقيقته التوسعية باستمرار . ان اداة هذا الكيان لها خصائص مميزة تجعل من وجودها « كمادة » لهذا الكيان وجودا يحمل طابعا أكثر تعقيدا واشد تكثيفا واوسع مساحة .

ثالثا ــ لماذا فلسطين بالذات ؟ !

يقول ناحوم غولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي في خطاب القاه العام ١٩٤٧ :

« كان بامكان اليهود ان يحصلوا على اوغندا او مدغشقر او غيرهما ، لكن اليهود لا يريدون على الاطلاق الا فلسطين ، وهي ملتقى الطرق بين اوروبا وآسيا وافريقيا ، ولانها المركز الحقيقي للقوة السياسية العالمية، والمركز العسكري الاستراتيجي للسيطرة على العالم » .

محاضرات ومداخلات :

وكانت الندوة قدشهدت مشاركة اسماء اخرىعبر ابحاثومداخلات منهـا :

- عبد الهادي ناصف : « دور مصر في المشروع الحضاري العربي» .
- فيكتور سحاب : « المسيحيون العرب والمشروع الحضاري العربي » .
- محمد فائق(١) : « تقرير ختامي عن الندوة » .
- عادل حسين : « التنمية الاقتصادية ودورها في المشروع الحضاري العربي » .

والجدير بالذكر ان ندوة ناصر هذه ، رافقتها عدة ندوات واحتفالات مختلفة أقامتها القوى الوطنية اللبنانية ، وبمختلف المناطق اللبنانية .

(١) محمد فائق : وزير الاعلام بمصر في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر .

تقـــاريـــر

« ورقة العمل الفكرية »
اللجنة التحضيرية لمؤتمر الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للوطن العربي

تونس ٣٠/٣ـ٣/٤/١٩٨٢م

ليس جديدا القول بأن العقل العربي تعرض لغزوات متتالية من جانب الفكر الاستعماري سواء في مراحل الضعف التي مرت بها الامة العربية ، أو حين ظهرت طبقات اجتماعية ارتبطت مصالحها بالاحتكارات الاجنبية، مما فرض عليها انماطا من الفكر والسلوك الاجنبي فرضته بدورها على المجتمع الذي تعيش فيه لتبرر تلك المصالح المتعلقة مع مصلحة الغزاة .

غير أنه لم يحدث في التاريخ العربي ان كان الغزو الفكري وحده هو سيد الساحة الثقافية السياسية بل لازمته دائما المقاومة البطولية لهذا الغزو ، سواء من جانب التراث والقيم الاصيلة أو من جانب الطبقات المقهورة التي رأت في الغزو الفكري مظهرا فقط للغزو الاقتصادي والاجتماعي ..

ودائما كانت الغزوات الفكرية لبلادنا ، اما مقدمة او نتيجة لما هو اشمل . فمنذ الحروب الصليبية الى الاستعمار الغربي الحديث الى الاحتلال الصهيوني كانت الافكار التبشيرية او الاعلامية او الاكاديمية القادمة مع الاساطيل والطائرات وجحافل الغزاة هي الصياغة العقلية والوجدانية للقهر الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ..

وفي هذا السياق نشير الى ان الامة العربية في امجد لحظات القوة الحضارية لم تتوقف قط عن التفاعل الخصب الخلاق مع الحضارات والافكار الاخرى ولكن التفاعل من موقع القوة تختلف نتائجه جذريا عن التفاعل من موقع الضعف ، حيث لا يكون هناك تفاعل حقيقي بل نصبح في حالة استقبال سلبي ومجرد صدى بلا صوت اصيل يتبادل الاخذ والرد ..

ليس ذلك كله بجديد لان الحملات الصليبية في واقع الامر لم تنقطع بأشكال شتى على طول تاريخنا الحديث ، حتى الغزو الفكري الصهيوني ، وهو احد اشكال الحملات الصليبية ، لم يولد مع الدولة الصهيونية ، بل قبل هذا الميلاد المشؤوم بنصف قرن على الاقل ، ولكن المقاومة العربية البطولية قد استطاعت في اوقات كثيرة ان تصد موجات الغزو او ان تشل قدراتها على الفعل او ان تقلل من الخسائر الى حد كبير ، وقد تبدى ذلك في حصول الاقطار العربية منذ اواسط الاربعينات وبداية الخمسينات وسنوات الستينات على استقلالها السياسي ، كما تبدى ذلك ايضا في المقاطعة العربية الشاملة لدولة العدو الصهيوني قرابة ثلاثين عاما ..

ولكن منذ استطاعت القوى الاستعمارية والصهيونية ان تفتح اخطر الثغرات في جدار الصمود العربي بزيارة رئيس اكبر دولة عربية للقدس المحتلة تطور (الخطر) تطورا نوعيا شديد الوطأة يهدد امتنا للمرة الاولى تهديدا مصيريا وذلك بتطبيع العلاقات بين النظامين المصري والصهيوني وهو التطبيع الذي لقي مقاومة بطولية من جانب الشعب العربي المصري ومثقفيه ولكنه في الوقت نفسه لقي استجابة من جانب بعض الشرائح والفئات داخل مصر وخارجها حتى انه تحول احيانا الى (اطروحة)

تدعو مجاهرة أو سرا الى نوع من التعايش مع الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للوطن العربي ، وذلك تحت شعارات لامعة كالانفتاح الحضاري والتفاعل التكنولوجي والديمقراطية ، وهي ذاتها الشعارات التي رفعها (المهاجرون الرواد) في القارة الامريكية وهم يبيدون الهنود الحمر ..

ان الترجمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لهذا التحدي (الحضاري) وهي تكريس التجزئة العربية المفتعلة اصلا بالقبول الضماني او الواقعي بجسم غريب على الامة العربية وفي موقع القلب منها يشقها الى شطرين ، وهي ايضا الانسلاخ التدريجي عن الهوية العربية القومية والتلفع بثياب طائفية ورايات عرقية تضاعف التمزق والتفتت وتدخلنا سواء رضينا او لم نرض عصر (الشتات) ، وهي كذلك تحولنا الى دويلات متخلفة ، ارضها ليست اكثر من سوق خاضع للسيادة الاجنبية رجالها ونساؤها عبيد للسادة الاجانب ، وثرواتها ليست اكثر من مواد خام لبناء الامبراطورية الاستعمارية الصهيونية الجديدة .

ان الغزو الفكري الامبريالي الصهيوني ليس وليد الساعة ولكنه مجموعة هائلة من التراكمات ادت في خط سيرها الطبيعي لهذا الغزو هي مجموعة من الخبرات والتجارب والاساليب والقيم تحتاج بدورها الى (نقلة نوعية) تستجيب للتحدي وتكون بحجم الخطر .

وبذلك نرى من الضروري ان نعكف على : ــ

أ ــ تحديد ملامح الشخصية الثقافية العربية من حيث مقوماتها وأهدافها ورؤياها للعصر الذي نعيش فيه . اي ان يجيب المفكرون العرب على الاسئلة الاساسية : من نحن ، ما هي مقوماتنا وخصائصنا القومية ، وكيف نتفاعل مع عصرنا تفاعلا ايجابيا دون انسلاخ عن شخصيتنا الثقافية او انغلاق على التجارب الاخرى وأن نحرص في الوقت نفسه على هويتنا الحضارية حتى لا تبهت او تضيع في خضم هذه التجارب .

ب ــ نعم ، نحن متخلفون في الكثير عن ذروة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية فكيف نتجاوز مرحلة التخلف ، وما هي سبل الوعي

الموضوعي بمسببات التخلف وكيف نسلح الجماهير العربية برؤية ثقافية اجتماعية تقهر التخلف ، وما هو التقدم المنشود من حيث النهج والاهداف وما هي القيم التي ينبغي تسويدها في مرحلة التحول من التخلف الى التقـدم .

جـ ـ ان الغزو الثقافي لامتنا واقع لا شك فيه ، غير انه يتعين على المؤتمر أن يحدد الملامح النوعية لهذا الغزو ومظاهره وأساليبه وأن يحدد لنا في الوقت نفسه منهج التفاعل الثقافي العربي مع الثقافات الاخرى من جهة ، ومع تراثنا من جهة اخرى .

د ـ كذلك فان تحديد أساليب مواجهة الغزو الثقافي ، من المهـام الفكرية الاصيلة لاية « ثورة ثقافية » تنشد مقاومة الغزو والتخلف معا . ولذلك فانه يتعين على المؤتمر متابعة اشكال الغزو وامتداداته في حياتنا المعاصرة ، وتعرية هذه الاشكال وتشخيص هذه الاختراقات حتى نتعرف على اساليب الامبريالية والصهيونية واسلحتها في غزو العقل والوجدان العربي وقنواتها في التسلل الى الثقافة العربية .. ولكي يتزود الفكر العربي بعناصر علمية جديدة في التخطيط القريب والمتوسط والبعيد المدى ، للمواجهة .

هـ ـ وعلى المؤتمر أن يضع برنامجا لتوعية الجماهير العربية باخطار الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني وكيفية مواجهة هذا الغزو عمليا .

لذلك كانت دعوتنا الى مؤتمـر الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني لا ليكون مهرجانا سياسيا احتفاليا ولا ليكون حشدا أكاديميا مغلقا على البحث في مختبر ، بل هو مؤتمر نضع فيه العقل العربي المعاصر أمام مسؤولياته التاريخية ازاء تهديد مصيري لوجود امتنا ذاته ، يبحث لنا الجذور والاصول ، يبحث لنا أشكال التحدي البالغة التخفي والالتواء ، يبحث لنا مقومات تراثنا في المقاومة وما استجد من متغيرات ، يبحث لنا عن استراتيجية فكرية عربية جديدة نواجه بها (الموت الحضاري) الذي يطاردنا لا في الاعلام والتعليم الغربي المباشر بل في بلادنا وجامعاتنا واعلامنا وثقافتنا وداخل بيوتنا في البنى الاجتماعية الممسوخة نقلا عن الغرب .

مقررات الاجتماع الثاني

للجنة التحضيريـة لمؤتمر الغزو الثقافي

عقدت اللجنـة التحضيرية لمؤتمر الغزو الثقافي اجتماعهـا الثاني بطرابلس خلال يومي ٦ ـ ٧ فبراير ١٩٨٢ ، ودرست الترتيبات المتخذة لعقد المؤتمر في تونس في المدة من ٣٠ مارس الى ١٩٨٢/٤/٣ م . وقد اتخذت جملة من المقررات :

١ ـ بعد تضامني واسع ومستفيض حول اهداف الندوة ومضامينها تمت مراجعة الورقة الفكرية (ورقة عمل المؤتمر) واعيد صياغتها .

٢ ـ تم مراجعة اسماء الباحثين والمناقشين في ضوء الاتصالات والردود التي امكن الحصول عليها . وقد اعيد اسناد المهام طبقا لتلك الاتصالات والموافقـات ، واقرت قائمة المدعوين من شخصيات عامـة وهيئات ثقافية .

٣ ـ أ : تعهد الاخوة أعضاء اللجنة التحضيرية كل في المكان الموجود به في الاتصال بالاخوة المشاركين من باحثين ومناقشين ومدعوين للتأكيد على الدعوة والقيام بما يستطيع من جهد اعلامي حول اهمية المؤتمر .

ب : يكلف الاستاذ بلقاسم كرو الاتصال بالاساتذة والكتاب في مصر ودعوتهم للمشاركة وادخال الموضوعات التي يختارونها الى قائمة البحوث .

ج ـ يكلف الدكتور عبد الله سعادة والاستاذ احمد سويد الاتصال بالمرشحين في لبنان وسوريا وكذلك الاخوة الفلسطينيين .

٤ ــ تقرر أن يؤكد توجيه الدعوة الى جميع المدعوين والطلب من الباحثين تقديم بحوثهم في موعد نهايته منتصف مارس الى الشعبة الثقافية بالامانة الدائمة بطرابلس ولجنة العمل بتونس حسب ما يكون ذلك متيسرا لهم .

٥ ــ تبدأ لجنة العمل والمتابعة اعمالها في تونس بتهيئة ظروف عقد المؤتمر وتتابع الدعوات اعتبارا من ١٥ فبراير كما تجتمع بشكل موسع وتستمر اعتبارا من ١٩٨٢/٣/١٥ م للاشراف على الترتيبات الادارية والتنظيمية وخاصة طبع وتوزيع البحوث ومتابعة جميع الاعمال بالتنسيق مع رئيس اللجنة التحضيرية للامانة الدائمة ومقرر الانشطة الثقافية .

٦ ــ تقرر طبع نتائج اعمال اللجنة التحضيرية في كتيب يتم توزيعه كما تكلف لجنة العمل على الاتصال بوسائل الاعلام العربيــة لتهيئة الرأي العام العربي .

٧ ــ صدر عن الاجتماع الوثائق التالية :

أ ــ الورقة الفكرية .

ب ــ الورقة التنظيمية .

جـ ــ قائمة المدعوين .

د ــ البيان الختامي .

(جـدول اعمال المؤتمر)

المحور الاول : الخصائص القومية للشخصية العربية .

١ ـ المقومات الثقافية للشخصية العربية .

٢ ـ الاهداف الحضارية للأمة العربية .

٣ ـ الرؤية العربية للعصر .

المحور الثاني : الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني والاستلاب الفكري في الوطن العربي .

١ ـ الغزو الثقافي الممهد والمتوافق مع الاستعمار الحديث في الوطن العربي .

٢ ـ الاستلاب الفكري والثقافي وازدواجية اللغة .

٣ ـ الاستشراق والاستلاب الفكري .

٤ ـ التعليم والاستلاب الحضاري .

٥ ـ وسائل الاعلام الغربية والاستلاب الثقافي .

المحور الثالث : الجذور التاريخية للغزو الثقافي .

١ ـ الغزو الفكري الصهيوني في التراث .

أ ـ الاسلامي .

ب ـ المسيحي .

٢ ـ الغزو الثقافي الصهيوني للأمة العربية منذ القرن الماضي .

المحور الرابع : الغزو الثقافي الصهيوني للأمة العربية في الوقت الحاضر .

١ ـ الثقافة الصهيونية ، ما هي ؟
٢ ـ الغزو الثقافي للعرب في الارض المحتلة .
٣ ـ الغزو الثقافي الصهيوني بعد معاهدة معسكر داوود وسياسة تطبيع العلاقات في مصر .

المحور الخامس : مواجهة الغزو الثقافي في الوطن العربي .

١ ـ خلق ادوات المقاومة .
٢ ـ اطلاق الحريات .
٣ ـ التواصل مع الثقافات الاخرى .

* * *

رسالة لندن :

من حصاد الخريف
مجلة البحث
في شمالي شرقي افريقيا

عبد النبي اصطيف

لا اظن الا ان ابتسامة سوف تعلو وجه من يطالع هذه السطور عندما يراها معنونة بحصاد الخريف . فمجرد الحديث ـ او حتى الاشارة ـ الى فصول في بلد كانكلترا يرسم الكثير من التعابير على كل من خبر الجو الانكليزي على نحو مباشر ، او من عرفه من خلال ما نقل له عنه من تقلب وتغير مستمرين . وكما قال احدهم عندما سئل عن الطقس الانكليزي : « انه اما اربعة فصول في كل يوم ، واما شتاء يعقبه شتاء يتلوه شتاء ينتهي بشتاء » . وعلى ذلك فلا ياخذن قارىء هذه الصفحات

كلمة الخريف الا المآخذ الرسمي . وعندها فانه يمكن الحديث عن وعود الخريف وحصاده . لأن هذا الفصل وعلى اي حال – وفيما يتصل بشؤون الوطن العربي – قد شهد ولادة ثلاث دوريات تتصل بنحو او بآخر به رغم تفاوتها في النظر اليه . فواحدة منها تنظر اليه على أنه **جزء من عالم أكبر له فيه دور الريادة والقيادة وما يستتبعانه من مسؤولية** ، وتنطلق في نظرتها تلك من **منطلق ثقافي روحي ديني سياسي مزيج** . وثانية تنظر الى جزء منه . او طرف من اطرافه **كقسم من جزء من قارة واسعة** وتنطلق في نظرتها هذه من **منطلق جغرافي انتربولوجي عرقي** ، وثالثة تنظر الى **جزء ثالث آخر منه وتضعه في سياق استراتيجي اقتصادي سياسي** . وفي حين يغلب **الطابع الجامعي** من **البحث المتأني والأكاديمية بالمعنى الضيق أحيانا على الدوريتين الأخيرتين** ، يغلب **الطابع الصحفي الوسط** الذي يتصل **بشؤون الحياة اليومية بجوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على الدورية الاولى** . ولعل هذا هو السبب الذي جعل الدوريتين الاخيرتين تصدران على خفر واستحياء دون ضجة اعلامية كبيرة . في حين رافق ظهور الدورية الاولى مؤتمر تحدث فيه عدد من الباحثين ورجال القلم والسياسة وحفل استقبال ، حضره نخبة كبيرة من الجامعيين والصحفيين ورجال الاعلام والسياسيين ممن يهتمون بشؤون الشرق العربي والاسلام والمسلمين من مختلف انحاء العالم .

* * *

فأما المجلة الاولى فهي « **الجزيرة العربية : مجلة العالم الاسلامي** » ، وهي مجلة سياسية ثقافية اخبارية شهرية تصدر في لندن عن وكالة الصحافة الاسلامية ، واما المجلة الثانية فهي : « **إن ،إي ، إيه ، مجلة البحث في شمالي شرق افريقيا** » وهي مجلة فصلية تصدر في اكسفورد ،

ويحررها كل من تسهاي بهرانه سيلاسي (من اثيوبيا) وانتوني مكلر (من انكلترا) . واما المجلة الثالثة فهي ((**مجلة الخليج العربي**)) وهي مجلة نصف سنوية يحررها بيل تشارلتن ومي زيوار دفتري ، وتصدر في تشرين الاول ونيسان من كل عام عن شركة **م. د. للبحث والخدمات المحدودة** في لندن .

* * *

ولما كان المجال لا يتسع هنا للحديث عن المجلات الثلاث فانني سوف أخصص هذه المقالة الموجزة للمجلة الثانية وذلك لانهـا محاولة جادة رصينة استطاعت ان تنهض على اقدامها بجهود فردية محدودة ومن ثم فانها جديرة بكل تشجيع ، وعلى اي حال فان مستوى ما ضمه العدد الاول يسوغ هذا الاهتمام اضافة الى ان هذا العدد بالذات يضم جملة مقالات عـن ارتيريا والصومال وهما جزءان قلما يظفـران بالاهتمام الجديرين به في الكتابات العربية المعاصرة .

والمجلة كما يوحي عنوانها هي **مجلة بحث** ، ويبدو انها ستستمر في ذلك كما تشير **افتتاحية العدد** ، اما المنهج الذي تحاول ان تتبناه فهو **منهج يجمع بين علوم مختلفة** ، وبالتالي فانه يتيح رؤية الظواهر المدروسة من مختلف جوانبها . اما حدود اهتماماتها الجغرافية فهي **(اثيوبيا ، والصومال ، وجيبوتي ، والسودان)** ـ اضافة الى المناطق المجاورة لهذه الدول كجنوبي مصر ، وغربي السودان ، وشمالي كينيا ـ . وعلى اي حال فان المحررين يريدان ان يؤكدا على أن الحدود الفاصلة بين الكتابة الاكاديمية يمكن ان تمزق ، بل ان تغدو غائمة ، فالمجلة اضافة الى المقالات والمراجعات الاكاديمية ، لا ترى اي ضرر في نشر زوايا صحفية ربما لا يتاح لها ان تظهر في منشورات اكاديمية صارمة الحدود . والغاية بالطبع من هذا الأمر هو جعل المجلة مقروءة من اكبر جمهور ممكن .

وحتى لا تغرق المجلة في **حمأة الصراع السياسي الراهن في المنطقة** ، فانها قد ابتعدت على الاقل في عددها الاول عن معالجة الشؤون الراهنة للمنطقة وكان هذا مقصودا كما يشير المحرران في افتتاحيتهما ، لانهما شعرا بأن ذلك قد ينعكس على الحصيلة العامة لهذه المجلة التي أريد بها ان تسد فراغا قائما فيما يتعلق بدراسات هذه المنطقة الحيوية استراتيجيا وسياسيا وتجاريا ، (لإشرافها على اكثر **طرق نقل النفط حيوية لاوروبا وامريكا)** .

وعلى أي حال فان تقديم ثبت بمحتويات العدد الاول قد يعطي القارىء العربي فكرة ما عن طبيعة اهتمام هذه المجلة ومحاور هذا الاهتمام .

يضم العدد الاول من المجلة ــ اضافة الى الافتتاحية ثلاثة اقسام هي المقالات ومراجعات الكتب ودفتر ملاحظات اكاديمي الى جانب الاخبار المتصلة بالمجلة وتحريرها وشؤون القائمين عليها لأن المجلة عمل جماعي يقوم به المحرران ومجموعة من المهتمين بشؤون المنطقة من الباحثين وطلاب الدراسات العليا في بريطانيا كلها .

المقالات :

١ ــ « بقاء الثقافة الوطنية في الصومال خلال الفترة الاستعمارية وبعدها ، اسهامات الشعراء والكتاب المسرحي ، وجامعي الادب الشفوي » لـ د ، اندرز جيفوسكي الأستاذ في مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية في جامعة لندن (ص ٠ ص ٣ ــ ١٥) .

٢ ــ « مصطلحات عرقية وغموضات على الحدود السودانية الإثيوبية » لـ د ، وبندي جيمس المحاضرة في الانتروبولوجيا الاجتماعية في جامعة اكسفورد (ص ص ١٦ ــ ٣١) .

٣ ـ « حماسين ومملكة غوندارين : اعادة تقويم للتقاليد الشفوية » لـ ريتشاردز بانك هيرست من الجمعية الملكية الآسيوية في لندن (ص ص ٣٢ ـ ٥٠) .

٤ ـ « عالم الرجل » « وضع المرأة » : حالة ارمل دراسا لتسهاي بهرانه سيلاسي (ص ص ٥١ ـ ٦١) .

٥ ـ « دور الاستعمار في حفظ المثال الاستعماري في إثيوبيا ١٦٨٢ ـ ١٨٥٥ » لـ جين وين رايت من جامعة لندن . (ص ص ٦٢ ـ ٦٨) .

مراجعة الكتب :

ويضم مراجعة لمجموعة من الكتب منها :

١) ريتشارد شيرمان : **ارتيريا : الثورة التي لم تنته** ، نيويورك ١٩٨٠

٢) باسيل ديفيدسون ، ليونيل كليف ، وبيركت هبت سيلاسي : **ماوراء الحرب في ارتيريا** نوتنغهام ، ١٩٨٠
وراجعهما نيلسون كسفير (ص ص ٦٩ ـ ٧٠)

٣) أ . م ، لويس : **تاريخ حديث للصومال : امة ودولة في قرن افريقيا** ، لونغمان ، لندن ١٩٨٠ ، من مراجعة سالي هيلبي ، ص ص ٧١ ـ ٧٢ .

٤) اورليش براوكيمبر : **تاريخ مجموعة (هديه) في جنوب اثيوبيا : من البداية الى ثورة ١٩٧٤** (بالالمانية) فايسبان ١٩٨٠ ، من مراجعة بايرو تفلا المحاضر في جامعة هامبورغ .

٥) بيير غوين : **تاريخ زلازل اثيوبيا وقرن افريقيا** ، اوتاوا ، كندا ، ١٩٧٩ بقلم م . هـ . ورثينغتون .

٦) و . ا. غروسكيل : **حرب الفي الميل** ، لندن ١٩٨٠ ، بقلم انتوني مكلر .

دفتر ملاحظات أكاديمي : ويغطي انباء الندوات والمؤتمرات المتعلقة بالمنطقة اضافة الى ما تتلقاه هيئة التحرير من ملاحظات ورسائل حول المجله .

وهكذا فان القارىء العجول لهذه المجلة يستطيع ان يلاحظ بسهولة انها محاولة جادة قائمة على مصادر محدودة ، وهي لاشك جديرة بكل تشجيع ودعم . رغم ان المرء لايسعه الا ان يأمل ان لايتجاهل المحرران وكتاب المجلة صلات هذه المنطقة بما حولها ، والا يتم الاقتصار على البلدان المجاورة فقط ، فلايمكن لاحد ان يزعم لمنطقة انها تستطيع ان تبقى في عزلة في عالمنا المعاصر ، وخاصة اذا كانت القرن الافريقي .

❋ ❋ ❋

مطالعات :

الأقوى ، موقف من السلطة وآخر من التاريخ

صدوق نور الدين

- ١ -

تمثل (الاقوى) كنتاج قصصي حقبة معينة في كتابات زفزاف الابداعية تلك الكتابات التي تندرج ضمن احبولة الحوار مع الاخر ، باعتبار ان العملية الابداعية في حقيقتها ليست سوى محاورة بين المبدع والمتلقي ، اذ ومن خلال تلك المحاورة يستهدي المبدع لايصال افكاره ، في حين يتلقاها المتلقي ويتعرف الى المقصود من وراء الابداع . و (الاقوى) من

(*) دراسة في مجموعة محمد زفزاف القصصية ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٨ .

خلال مضمونها تؤكد موقفين : موقف من التاريخ ، واخر من السلطة . ذلك ان التأكيد على نضالية الشعب المغربي في الحقبة الاستعمارية لم يتجسد في قصص زفزاف خاصة مجموعته (بيوت واطئة) ، في حين ان (الاقوى) اكدت احقية الاهتمام التاريخي . ومهما يكن فزفزاف اعطى بعدا تاريخيا للقصصه ، دون التغاضي عن كون كل كتابة في جوهرها تظل وثيقة تاريخية لمرحلة في عمر المجتمع المغربي والعربي برمته . اما عن الموقف الثاني ، فزفزاف يواجه بالقوة ويتصدى ، بل يكشف عن الدور الذي تتقمصه السلطة في حالات معينة ، اذ في امكانها ان تغير الامور لصالحها مع الحاق الضرر بالمواطن ، كما في امكانها المتابعة والملاحقة الى نهاية المطاف . والواقع ان (الاقوى) تكاد تشكل نغمة واحدة ، ذلك ان البناء متماسك والقصص في تدرج محكم ، بحيث لاتكاد تنتهي من واقعة حتى تصادفك الاخرى ، لتبقى الصورة الماثلة امامك : الانسان مضطهد في كل الاحوال .

- ٢ -

ليس ثمة فارق في المعمارية الفنية التي تحوي ضمن اطارها النص المستهدف ، ذلك ان طريقة زفزاف في الكتابة سواء الروائية او القصصية تستمد منطلقها من اتون البساطة والتحليل ، تحليل نفسيات الابطال ، والكشف عن طموحاتهم وامالهم ، مع الاشارة الى كون مجموع هؤلاء الابطال ينحدرون من مستويات مختلفة ، فهناك البورجوازي الصغير (الموظف والمثقف ووضعيتهما بالقياس الى الاخرين) ، كما ان هناك البطل الشعبي الذي يعيش بطرق مختلفة وشتى الكيفيات ، في حين ان البطل في (الاقوى) يتدحرج بين مستويين ، مستوى الاخفاق ، ومستوى الصمود والتحدي ، اما لغة الحوار فانها تأتي مباشرة كما هو متعارف عليه في جميع القصص ، كما تأتي مقحمة ضمن النص القصصي وبطريقة

غير مباشرة ، وهي نفس الملاحظة التي يمكن ابداؤها بالنسبة لمجموعة (البدايات) لادريس الحوري . اللهم ان هذا الاخير يحاول الجمع بـين ثنائية الحوار القصصي المسرحي . الى جانب هذا ثمة نوع من استعادة الاحداث ، الا ان هذه الاستعادة جاءت بكيفية تقابلية بين زمنين متباعدين الماضي والحاضر ، هذه التقابلية التي تبقى واضحة غير مقحمة ضمن النص ، في معنى أن المبدع يكشف مرحلة التباعد للمتلقي ولايتركه اسير البحث عنهما ، اوفك تعقيداتها ، الى جانب هذا فان الصور تأتي دقيقة لاعتماد زفزاف على الرؤية البصرية الحادة ، كما انها تأتي مشحونة بكثافة شعرية في عمقها تؤكد اهتمام المبدع بالمجال الشعري . يقول : (كانت الساعة حوالي الحادية عشرة ليلا . والسماء تنذر بصحو حقيقي غدا . لكن الظلام مع ذلك منتشر ، لاتبدده سوى تلك المصابيح القليلة الباهتة المنتشرة خلف السور) . وهكذا فان اعطاء الظرف الزمكاني بعده ، يؤهل المتلقي لتشكيل احاطة حول الاطار الذي تتمحور في مداره القصة ، في معنى انه لايظل تائها يستشف منطلقات الوقوع بالنسبة للحدث ، وانما المبدع يتكفل باعطائه كافة الاسلحة من اجل اقتحام عالم النص .

- ٣ -

اكدت سابقا بأن (الاقوى) تحمل في عمقها موقفا من التاريخ ، بيد ان الاحتلال الفرنسي للمغرب والذي اعتبر مجرد حماية ، يحاول زفزاف كشف بعض ملامحه عن طريق اظهار رغبة المستعمر في تحويل الارادة والعزيمة المغربية كاداة فاعلة ضمن المخطط الاستعماري ، الذي يستهدف واد ، وشل القوة المغربية عن طريق تمزيقها . وهكذا فان مكامن الضعف المترسبة في الجسم الاستعماري ، خاصة الجانب العسكري ، يحاول المستعمر التغلب عليها باقحام المغاربة في حرب بعضهم مع بعض (وعندما وصلت البغال والحمير دق النفير فافقنا على ذعر واكتشفنا ان وراء

سلسلة الحمير والبغال سلسلة اخرى من الحمير والبغال . ثم وراءها سلسلة من البشر الحفاة مثلنا ، جاءوا من قرى اخرى في السهل ، ثم وراءهم جنود مسلحون ، لكنهم قلة قليلة تعد على رؤوس الاصابع .) اذا ماالمحنا للمقاومة المغربية التي انطلقت في الجبال والسهول ومناطق اخرى من المغرب ، هذه المقاومة التي وقف المستعمر حيالها في حيرة تامة جعلته يفكر في الكيفية التي سيتخلص بها من ذلك ، فما كان الا ان زج بالمغاربة لقمع بعضهم البعض ، ولاخماد ثورات القبائل الباسلة (ان بعض القبائل ثارت على السلطات ، وان هذه الاسلحة ستوجه لقمعهم ولقمع ثورتهم .) الا ان هذا الزج دفع بالمغاربة للتساؤل عن وضعهم ، وعن الحالة الاجبارية التي يخضعون لها من طرف المستعمر ، باعتبار ان رحى الحرب ستدور بين مغاربة ومغاربة على السواء (وتساءلت : كيف بامكاننا ان نستعد لقتل اخوة لنا في الدين . ثم اننا لسنا مدربين على استعمال السلاح .)

وهكذا تتأجج حركة المقاومة وتكتسب افعوان قمتها في المناهضة والمواجهة والتحدي .

والملاحظ ان زفزاف من خلال التاريخية التي اكسبها لبعض قصص (الاقوى) ، حاول التأكيد على الظروف الواقعية التي تواجد في احضانها المغاربة فيحقبة معينة منحياتهم هي الحقبة الاستعمارية ، وعن الاضطهاد الذي تعرضوا له على يد المستعمر ، ليبقى الحديث التاريخي في (الاقوى) مكسبا لخدمة البعد الواقعي للمجموعة ، اذ ان الاحساس الكامن بين حقبتين متباعدتين ، حقبة الاستعمار ، وحقبة مابعد الاستعمار في جوهر الحقيقة ، يكشف في عمقه ان الانسان المغربي في وضعيته ليس سوى ذلك الانسان ، المعاناة ، ذلك الانسان الضحية ، مما يبرهن ان زمن ما بعد الاستقلال هو استفادة لطبقة معينة ، وافتقار لطبقة اخرى معروفة ..

٤

يستمد الموقف من السلطة احقية تواجده من خلال الحديث عن وضعية الكائن المغربي داخل المنظومة الاجتماعية . ذلك ان ظروف الفقر والكدح وحدها معيار التحدي والمجابهة ، بيد ان محمد زفزاف في حديثه القصصي يربط بين الفعل ورد الفعل ، اذ انه يزج بأبطاله داخل بحبوحة الصراع ، ليتحول كل ذلك الى ثورة على المألوف والمتواجد ، رغبة في خلق ماهو غير مألوف / بديل ، وهكذا فظروف الفقر تبقى منطلقا للصراع (ـ لا تفكر في هذا . لم يكن لنا بيت اطلاقا ولا يمكن ان يكون .) لـذا فان كان الحصول على بيت غير ممكن فانه (بالنسبة لامثالنا السجن راحة وانفتاح .) وهكذا يغدو السجن رغبة في الراحة والانفتاح حين لا يتحقق الامل في الحصول على بيت ، وبذلك فان الفقر والكدح وتمكين فئة من التغلب على فئة أخرى كلها عوامل تدفع المواطن الكادح الى الحديث عن ظروفه والبحث عن بديل للوضعية الكائنة ما دامت تفتقد لابسط مقومات التواجد العادلة ، فيحدث الالتجاء الى الخمرة كوسيلة للنسيان والهروب على الاقل (ثم انتقلنا للحديث عن صعوبة الحصول على جواز سفر وتحدثنا كذلك عن اوروبا وكيفية اغتيال المهدي بـن بركة . وشتمنا الوضع القائم وطلبنا كؤوسا أخرى من الشراب حتى لم نعد نقوى على الوقوف .) وامام هذا نجد الفئات ذات المصلحة تساهم في دعم مصلحتها حتى تحافظ على استمرارها ، في نفس الوقت حتى تؤكد روحهـا الاستغلالية ، بشتى الكيفيات وابشع الطرق ، ولو ان ما تستهدف استغلاله لا يمت لها بصلة ، فان التزوير والتزييف منطلقات لتحويل ما ليس ممكنا تحويله لصالحها (لم يجبه القائد ، لانه مشغول بالنظر الى تلك البقع البيضاء المنتشرة وسط الاشجار . وتمنى لو كان ذلك المنبسط كله تحت الجبل ملكه وحده . ولكنه يعلم أنه ملك لفخذة توارثته منذ قرون ربما . ومهما حاول أن يزور من الوثائق مثلما فعل

ببعض الاراضي فانه لا يستطيع الحصول على هذا المنبسط الذي تغطيه الاشجار .) .

— ٥ —

تبقى (الاقوى) في بعدها الواقعي ، تشريحا للوضع المجتمعي المغربي، ذلك أن معايشة زفزاف لشلة التناقضات والصراعات أهلته لتشكيل رؤية مانعة ، تمتح تواجدها في سبيل ضبط الصراع الطبقي الناتج عن التردي السياسي والاقتصادي ، اذ ومن خلال المسح الذي تجريه على كافة المعطيات المادية يسبر اغوار كمون الوضع ، بيد ان زفزاف في واقعيته يؤكد مستوى تفوقه على غيره من المبدعين في مجال القصة القصيرة بالمغرب ، اضافة لهذا فان واقعيته تتجاوز حدود الرمز والايحاء لتعلن عن ذاتيتها عارية ، الا انه لا ينبغي اعتبار القصة عند زفزاف تقريرا لحالات التردي وانما تبقى ممكنات الايصال والتواصل اللبنات الاساسية لمحورة الحدث بكيفية فنية ذكية .

المغـرب

صدرت (الاقوى) عن منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق / سوريا . ١٩٧٨ .

مطالعات

الحنظل الأليف(*)

دراسة في الزمان والمكان

صالح الرزوق

السرعة في ادب وليد اخلاصي هي لغة العصر . هي الجوهرة الخبيئة أو الدودة الطيبة التي تقيم في قلب القرن العشرين . ومع ذلك تلمس مجموعة من الثوابت تحافظ على نسق واحد لجنون العصر او سرعته .

التجريب في أول القائمة . وعلى اعتباره امرا يحتمل التغريب والاندماج ، فانه شيء حداثي (في التقنية) بقدر ما هو افتراض للعصرنة (في القيمة) .

(*) منشورات دار الكرمل - دمشق ١٩٨١ .

لكن ارتباط الحداثة بالعصرنة عن طريق اللغة (وهي الكم والنوع التراثيان) يبدو ابداعا خاصا بوليد . فاللغة عنده كالوحدة الجنسية عند فرويد ، وكالثقافة عند ماثيو ارنولد ، حتى انه قال ذات مرة (أهدف من الكتابة الى تحقيق لغة جديدة)(١) . وذلك مع شيء من التساهل ضرب من التوماثية الجديدة التي تعتبر اللغة جوهرا شاملا للكتابة ، وبالتالي كل محدث متناه جزء من جوهر اللغة . وهذا ما يجعل كتابات مثل (التقرير ، قصص ، العالم من قبل ومن بعد ، زمن الهجرات القصيرة) ابعد من ان تصدم القارىء او تتعاون معه في تشييد بنية درامية ، مكتفية بالتشبيع الاخلاقي والفلسفي .

والموضوع الاخلاقي الفلسفي عند وليد ثالث الثوابت المشار اليها . انه موضوع الانسان الذي يرثي كرامته في ظروف بدت وكأنها نفي لكل رجولة وكرامة (ي . سولفيوف) . وهذا اسلوب ملائم جدا لوصف الحياة الفقيرة روحيا كما فعل بروست في (البحث عن الزمن الضائع).

وما رثاء إليوت للارض اليباب ومأساويات كونراد في قلب الظلمة الا تنويعات على الوتر نفسه .

اذا **التجريب ، اللغة ، الموضوع** هي رؤوس المثلث متساوي الاضلاع في ادب وليد . وهي الجذع في جسم اعماله الفنية .

وقد بقيت كذلك حتى بعد ان انتقل من الرؤية الافقية للعصر الى الرؤيا العمودية له . فباعشابه السود و (الحنظل الأليف)(٢) تقدم بنوع من الفهم الوظيفي للغة ، نراه واضحا في قوله (اللغة كائن حي يعيش مع خالقه ، وعندما تصبح اسلوبا لا يعود هناك فرق بين الكلمات المكتوبة والفكرة التي يراد التعبير عنها)(٣) .

وهذا سر التفوق الكبير الذي احرزته رواية مثل (الحنظل الأليف) على رواياته الاولى (احضان السيدة الجميلة ، شتاء البحر اليابس ، احزان الرماد) .

* * *

تلك المقدمة او المدخل تضرب عصفورين بحجر واحد .

اولا ـ تنفي وجود الدائرة التي تحدث عنها محمد جمال باروت في دراسته عن (الحنظل الاليف)(٤) .

ثانيا ـ تؤكد خروج وليد اخلاصي من مازقه القديم : ازدواجية اللغة والاسلوب .

* * *

انني لا استطيع ان اعثر على اي دائرة في رواية (الحنظل الأليف) ، اللهم الا اذا كانت بعض الدوائر اللفظية التي وردت على لسان (آدم) عفوا ضمن السياق العام .

فقد وضع وليد اخلاصي ابطاله منذ البداية امام مجموعة من الخيارات هي بشكل او آخر ثنائية الخير والشر او الاخلاق واللااخلاق بالمعنى الذي تحدثنا عنه في المقدمة .

فآدم كان امام احد خيارين : الالتحاق بالقوى الثائرة على الامير ، او الالتحاق بجنته الوهمية . وقد تساءل اكثر من مرة بصريح العبارة قائلا (اي الطريقين نسلك ؟) ص ١٤٣ وفي النهاية اختار طريق الثورة ، باعتبارها طوق النجاة الوحيد ، ولانه لم يفقد الامل بالتغيير . يقول (لي الامل بمتابعة التغيير) ص ١٤٩ . وفي الحقيقة لم يخترع وليد اخلاصي شخصية (آدم) الا كي يختار هذه الطريق ، ثم يتوارى عن الانظار فجاة مثلما ظهر فجاة .

اين الدائرة في منطق كهذا ؟ ...

لقد مضى (آدم) الذي هو ابو البشرية ومؤسسها ، بعد ان قال كلمته . اي بعد ان بدأ رحلة الألف ميل من طريق الثورة .

كذلك كان على المعلم ان يختار بين ليلى الجسـد وليلى الحبيبة والرمز . وقد اختار الاخيرة ، وعبر عن ذلك بقوله (ما عدت افهم سر تعلقي بها . فأنالامس بعد يدها المشتهاة ، ولكني احس بها وكأنها العالم بأسره) ص ١٣١ .

هنا تبدأ كيمياء وليد اخلاصي بالنضج ، حتى انها تحول الحديد الى ذهب . نعم ، هذا هو الاكسير السري الذي يجعل من ليلى مدينة ، ومن المدينة وطنا ، ومن الوطن نضالا وثورة وهدفا ساميا .

ان الترميز في رواية حساسة كالحنظل الاليف ، يحتاج الى رشاقة من نوع خاص ، كي لا يصبح استعارة مكشوفة . ولقد نجح المعلم ايما نجاح ومن خلفه آدم ـ الجذور ، في تبني الرمز كقوة حية ومولدة .

فرحلة آدم بين قصر الامير وسرداب المدينة هي في احد وجوهها رحلة آدم من الجنة الى الارض، بعد ان امتدت يداه الى الشجرة المحرمة. لذلك تنمحي معالم آدم البري تدريجيا ، وتختلط في اماكن كثيرة بآدم الجذور . حتى في حنينه الى عزه ، نشم رائحة الشوق التاريخي الى حواء ، وهي الحافز على ارتكاب الخطيئة البشرية الاولى . وما هـذا تناول ميتافيزيقي للواقع ، لان الرمز يتجه باستمرار نحو الغاء الجانب السري من الاسطورة ، وتركيبها ضمن سياق جديد . لذلك يصبح آدم هو الجميع . ويقول له المعلم في احدى المرات (هل تصدقني يا آدم . انت عابث مثل صاحبنا المدير وحالم كالشاعر ، وانت لا بد خالق مثل الرسام ، وبك شيء من تشوشي وقلق حياتي التي لا افهمها . كأنك نحن) ص ٤٩ .

وبالرغم من وضوح الرؤية هـذه يصر المعلم على ان يلقب آدم بـ (القادم من المجهول) ، واعتقد انه كان يريد ان يقول (الذاهب في المجهول) ، فالعبارة الاخيرة اكثر انسجاما مع منطق الرواية والراوي بالذات . لن تمارس دور المرشد او المصحح ، فما تقوله الرواية هو

الذي يجب أن تحاسب عليه ، لكن (الحنظل الأليف) تفرض على القارىء ان يحاسبها على ما لم تقله . والمجهول هو ذلك الشيء الذي لم تتحدث عنه بصراحة .

* * *

على أن هذا الكم من الاحلام والاساطير ، الحاضر والمستقبل ، الواقع والخيال ، يدور كله في القبو ، أو خشخاشة الأنس كما يسميه أصحابه .

لقد ركز وليد اخلاصي على ابراز هوية المكان بشكل واضح ، متجاهلا الزمان أو مطلقا عليه لقب (المجهول) . فالى ماذا يرمي من وراء ذلك ؟

يجيب غاستون باشلار عن هذا السؤال في كتابه الرائع (جماليات المكان) قائلا (في احيان كثيرة نظن اننا نعرف أنفسنا في مجال الزمان ، في حين ان مانعرفه هو تتابع تثبيتات في المكان الذي نشأنا فيه)(٥) .

ثم يقول كأنما هو يحل لغز القبو في الحنظل الأليف (ان المكان ، في مقصوراته المغلقة ، يحتوي على الزمان مكثفا . هذه هي وظيفة المكان(٦)) .

لقد اراد وليد اخلاصي لقبوه ان يحتضن احلام وآمال هذه الزمرة الخائبة من ابناء الوطن ، وأن يعطيهم درسا في الثورة والتضحية فأرسل اليهم آدم . وهو ينتقل باصرار من مكان مغلق الى آخر مغلق(*) ، من قبو خشخاشة الأنس الى سراديب قلعة حلب الى دهاليز المدينة (في قصة آدم) ليثير خيالاتنا الراكدة ، يحفزها على استنشاق الماضي ، أو يلقيها في قلب عملية الخلق التي تمت ايضا في رحم ضيق ومغلق .

(*) معنى المكان المغلق في بدايات وليد اخلاصي مختلف تماما عن المعنى الذي تبوح عنه أعماله الاخيرة . اظن أن هذه الاشارة الضئيلة باب حوار طويل افضل ان ادعه مغلقا الآن .

وحتى لا نتوصل الى استنتاجات مبهمة اود الاشارة الى احد اهم ثوابت المكان المغلق في الحنظل الاليف ، اعني به شخص الاسدي .

يقدم لنا وليد شخصية الاسدي عبر منحنيين :

- مورفولوجيا الاسدي او طبوغرافيا هيئته .
- واعماقه السرية الدفينة .

وهو بذلك انما يتحدث عن طبوغرافيا المدينة (حلب) وعن تاريخها وتراثها ومستقبلها (السراديب والقلعة والآثار) .

فبقدر ما بين المستويين من تناقض تتجلى الارادة في تعزيز هيئة المكان على شكل المطبخ الحضاري . في سراديب المدينة وفي صدر الاسدي كنز لا تنم عنه هيئة احدهما ، اي لا المدينة ولا ملامح الاسدي البشرية ، وهو الذي قال عنه في بداية الرواية (الرجل الخشن الحبشي الهيئة) .

ان من اولى مواصفات المكان في (الحنظل الاليف) هي التاريخية . انه مكان تاريخي بكل معنى الكلمة . وبالمقابل الرواية تاريخية لانها تدرس المكان ومغامرات كثيرة تمت فيه ، سواء كانت مغامرة آدم وعزة ، او مغامرة الاسدي والمعلم وليلى ، او مغامرة اصحاب القبو . فلكل حكاية او مغامرة مستوى تاريخي معين يرصد : واقعا او مرحلة ، ونحن بالتالي امام ثلاثة تواريخ او ثلاث مراحل متكاملة ..

وعودا على بدء ، وعقب هذه الثرثرة الايديولوجية والنفسية ، ننتهي الى القول برفض وجود المنطق الدائري .

لكن ما دمنا قد نوهنا الى دلالات مكانية ، واجد هذا أمراً يستهويني ، سأتابع الحديث عنه قليلا .

لقد آثر وليد اخلاصي قبوا ليكون بداية التاريخ ، وهياله رجالا بدائيين لا يحد خيالاتهم حد او عائق ، وكأنما هم يزينون جدران قبوهم

بتلك الرسوم الاثرية التي اعتاد ان ينقشها الانسان الاول . فكل شيء يعيدنا الى بداية الخليقة ، ابتداء من التناقض الجوهري الملحمي بين ارادة الخير وارادة الشر ، مرورا بموت الاسدي وانبعاث آدم اسما وظاهرا وباطنا .

حقيقة لا اجد في الادب العربي الحديث اذكى من هذه لهجاء الواقع من غير ابراز الدافع الاصلي ، دون ان يعني ذلك غياب الدافع او غموضه .

كلنا يعرف روايات شهيرة مثل ذئب البوادي لهيرمان هيسة او القصر لكافكا ، حيث تكون السراديب هي المسرح الاساسي للحوادث . لكنها لا تحتضن آمال الانسان او تنميها . هي في الواقع تمارس عليها نوعا من الضغط والسيطرة يصل الى حد السحق او الكبت في احسن الظروف .

بينما اجد فلسفة المكان عند وليد رحما حقيقيا يحمل دائما علامات الولادة والحياة والخصب ، لا علامات الموت والاندثار .
وكلما وقفنا على اطلال جيل يموت نرى في اعصابه جيلا يولد ويباشر ثنائية الرفض والثورة .

حين يعلن الراوية عجزه عن تأريخ واقعة المذبحة الجماعية (او بلغة دراستنا مآل مرحلة من مسيرة الثورة العربية) يقول له ابنه الذي شارف على البلوغ : (الا يمكن لهؤلاء الكتاب ، ان يكتبوا لنا اساطير جديدة او حكايات لم نعرفها من قبل ؟) ص ١٦٥ .

وانا على يقين تام من انه يعني بذلك تسجيل نقطة لصالح الجيــل الجديد الذي وصفه بالحرف الواحد (جيل يريد ان يكون واثق الخطوات بالنسبة للمستقبل) ص ١٦٦ .

فاذا كانت نهاية ليلى الحلم هو الترهل ، ونهاية الرواية الاصلي العجز عن مواصلة المسيرة ، فان المعلم كان قد دفع حياته ثمنا لموقف

لم يعرف خطورته ، وقبله لفظ الاسدي انفاسه في سبيل وطن اختاره فاحبـه .

وفوق هؤلاء جميعا يقف ابن الراوية الذكي ليتساءل : اين اسطورة المستقبل ؟ .

هذا السؤال البسيط والواضح ، لا يأتي خارج منطق الرواية ، بل هو في صميم مغامرة آدم والمعلم والاسدي ، الابطال الثلاثة الذين اختلفت مواقفهم من الوطن ، واتفق الوطن على كتابة مصير واحد لهم .

الهوامش :

(١) من مقابلة اجرتها مجلة الحرفيون ـ عدد ٢ ايار ١٩٧٧ .

(٢) منشورات دار الكرمل ـ ١٩٨٠ .

(٣) من جواب وليد اخلاصي لاستفتاء مجلة المعرفة عن اللغة والعصر .

(٤) مجلة المعرفة ـ عدد ٢٣٠ نيسان ١٩٨١ .

(٥) ترجمة غالب هلسا . انظر مجلة الاقلام العراقية ـ السنة ١٤ ـ عدد ١٠ تموز ١٩٧٩ .

(٦) المصدر السابق .

صدر حديثا عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



صدر حديثا عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



صدر حديثا عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي

